د. محمد عمارة

عندما أصبحت مصر عربية إسلامية

دار الشروق

عندما أصبحت

مصر عربية إسلامية

الطبعـة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



مقدمة

كان القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، نقطة تحول فى قيام مصر العربية ، واكتمال قسمة العروبة - فى نضج وحسم - لهذا الوطن الذى فتحه العرب المسلمون على عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب .

ففى ذلك القرن ، بلغت حركة التعريب ذروتها ، حتى إن كتب العبادة والصلوات فى الكنيسة المصرية قد اتخذت من العربية لغة لها كى يفهمها المصلون ! ! . . فكان ذلك تأريخًا لتعريب المعقل الأخير ، الذى استجاب لهذا الطور الجديد من الأطوار الحضارية ، التى قبلها وتفاعل معها وانخرط فيها ذلك الوطن ، الذى تضرب حضارته فى أعمق أعماق التاريخ . . فأصبحت مصر العربية . . بعد مصر القبطية . . وبعد مصر الفرعونية . . صفحة جديدة ومجيدة فى التاريخ المتصل للشعب المصرى . .

ومنذ ذلك التاريخ ، استطاع التاريخ - ويستطيع - أن يتحدث عن المجتمع المصرى العربى ، وليس فقط عن القبائل العربية التى هاجرت إلى مصر منذ الفتح . وأن يرصد حركة الأدب المصرى العربى : شعرًا ، ونثرًا ، وحكمًا ، وأمثالاً . . والفكر المصرى العربى : فلسفة ، وكلامًا ، وفقهًا ، وتشريعًا ، وتفسيرًا ، وحديثًا ، وتاريخًا ، وتقويمًا للبلدان . . إلخ . . إلخ . . وأن يتأكد من الميلاد والاستواء لذلك المزيج الجديد ، فى العادات والتقاليد والأخلاق ، الذى جاء ثمرة تفاعل الميراث المصرى بالقيم العربية الإسلامية الشابة والفتية . .

وأيضًا . . فإن ذلك القرن ، قد شهد أمرًا جديدًا وحاسمًا على الصعيد

السياسى ، فيما يتعلق بعلاقات مصر بباقى أجزاء الإمبراطورية العربية الإسلامية . .

فمنذ أن فُتِحتْ مصر ، عاشتْ مجرد ولاية تتبع عاصمة الخلافة : المدينة حينًا ، والكوفة حينًا ، ودمشق حينًا ، ثم بعد ذلك بغداد . . ولكن حركات الاستقلال الجزئى والذاتى ، التى عرفتها البلاد المصرية على عهد الدولة الطولونية (٨٦٨ ـ ٩٠٥م، ٢٥٤ ـ ٢٩٣ هـ) والدولة الإخشيدية (٩٣٥ ـ ٩٦٩ م ، ٣٢٤ ـ ٣٥٩هـ) ، قد تحولت ـ إذا نظرنا إليها كتراكمات كمية ـ إلى تغيير كيفى جديد ، عندما أصبحت مصر هى مقر الخلافة الفاطمية ، وعندما بنيت القاهرة عاصمة خلافة ومركز إمبراطورية . وحدوث هذا الحدث الجلل ، فى الوقت الذى تمت فيه لمصر عملية التعريب ، يعنى أن مصر العربية قد بدأت تلعب دورها التاريخى والطبيعى الذى تأهلت له ، وقامت به فى عصور كثيرة منذ عصر الفراعنة الأقدمين .

وعلى الرغم من أهمية هذه الحقيقة ، التى يجب أن تستلفت الأنظار المتأملة فى حياة المجتمع المصرى العربى فى تلك الفترة ، فإن الأمر الذى حدث ـ للأسف ـ هو أن معالم حياة المجتمع المصرى فى تلك الفترة ، لم تلق من البحث والدرس ما تستحقه الفترات الحاسمة فى تطور الأمم ، ذات التاريخ الطويل والمجد العريق .

ولقد وقفت خلف هذا الإهمال أو الإغفال أسباب كثيرة ، لعل فى مقدمتها :

١ ـ أن حركة التأريخ للفكر العربى والمجتمعات العربية ، قد اهتمت أساسًا بالتأريخ للعواصم . . وبخاصة دمشق وبغداد ، على عهدى الأمويين والعباسيين فظفرت هاتان العاصمتان ـ بما فيهما من فكر وحضارة ـ بما تظفر به الآن عواصمنا ، من عناية واهتمام . وكان حظ الأقاليم الأخرى ـ برغم الأهمية الحضارية لبعضها ـ ذلك الإهمال الذى يشكو منه ريفنا اليوم ، عندما ينظر إلى العواصم الكبرى المحظوظة ! ! .

٢ ـ أن مصر ، عندما أصبحت « عاصمة » ومستقرًا للخلافة فى القرن الرابع

الهجرى ، كانت الخلافة فيها يومئذ فاطمية شيعية إسماعيلية . وبعد أن ذهبت الدولة الفاطمية ، وقامت الدولة الأيوبية ، عاد المذهب السنى كى يصبح مذهب السلطة الحاكمة ، فتعرض النظام الشيعى ـ الذى حكم مصر زمن الفاطميين ـ إلى نقد وتجريح من المفكرين والمؤرخين السنيين . والأهم من ذلك ، أن مصر ومجتمعها وحضارتها وإنجازاتها قد تعرضت هى الأخرى من هؤلاء المفكرين والمؤرخين إلى مواقف تراوحت بين النقد الظالم أو التشويه أو الإهمال والإغفال . . ومن ثم ، فلقد ظُلمت مصر المجتمع ، ومصر الحضارة ، ومصر الفكر والعمران ؛ لأن الذين أرخوا لفترتها تلك كانوا لا يتعاطفون مع المذهب الفاطمى الشيعى والنظام السياسى الذى أقامه بمصر فى ذلك التاريخ ، أو يقفون منه ومن أيديولوجيته موقف الرفض والعداء .

ومن هنا ، تأتى أهمية هذه الدراسة التى نقدمها عن المجتمع المصرى فى العهد الفاطمى . . أهميتها لإنصاف الذين أنجزوا ذلك البناء الحضارى والسياسى الذى شهدته البلاد يومئذ . . وأيضًا ـ وهو الأهم ــ لتكون نقطةُ البدء فى تاريخ مصر العربية ــ عندما أصبحت عربية حقًّا ، بالمعنى الحضارى ، لا بالمعنى السياسى فقط ــ لتكون نقطة البدء هذه واضحة المعالم ، متسقة الملامح ، مبرَّأة من ذلك التشويه الذى حوّل صفحات مجيدة من حياة مجتمعها ، إلى ركام من الأحداث والتصرفات والمراسيم والقوانين التى تتخذ مادة للسخرية والاستهزاء ! !

وإذا كان القارىء سيرى فى فصول هذه الدراسة ما هو جديد تمامًا ، وما هو مخالف بالكلية لما تواضع عليه كثير من الذين نظروا فى أحداث تلك الفترة من حياة مصر ، فإن الفضل فى ذلك إنما يعود بالدرجة الأولى إلى المنهج العلمى الذى التزمنا استخدامه فى دراسة هذه الفترة ؛ فهو الذى يفسر لنا أمورًا حسب البعض أن لا تفسير لها . . وهو الذى جعل لبناء القاهرة ، مثلاً ، ولموقعها كذلك معنى وفلسفة تتعديان الدلالات الظاهرية التى لم يبصر سواها الكثيرون . . وباختصار: إنه المنهج الذى يضع يدنا على الحقيقة ، ويعطى عقولنا الفرصة كى تتأمل الإنجازات الحقيقية لهذه الأمة ، حتى تتزود بها هو ضرورى لمواصلة الطريق . .

فبمقدار نجاح هذه الدراسة فى الكشف عن معالم حياة المجتمع المصرى ، فى الفترة التى بدأت فيها عروبة هذا المجتمع فى النضج والاستواء ، وبمقدار ما ترد هذه الفصول إلى هذا الشعب الاعتبار بتقييمها العلمى لإنجازاته فى تلك الفترة ، يكون الرضا الذى نستشعره لبلوغ الهدف الذى توخيناه من وراء هذه الصفحات .

دكتور

محمد عمارة

الفصل الأول

المغزى الحضارى لنشأة القاهرة

● دراسة عن ارتباط نشأة القاهرة بعروبة مصر .
وعودة الدور القيادى إليها فى المحيط العربى .
وفلسفة المكان الذى قامت فيه . . وما ترمز إليه
وحدة العواصم من وحدة فى التاريخ .

القاهرة ... فلسفة المكان

ليس بغير التجاوز ، والتجاوز الشديد ، نستطيع أن نسلم بأن عمر عاصمتنا القاهرة الآن هو ألف عام فقط لا غير ! ! وعلى الرغم من أن شعبنا كله ، لا شعب القاهرة وحدها ، بل كل الشعوب التى تمثل القاهرة بالنسبة لها شيئًا ذا قيمة ووزن فى محيط التحرر والتطور والتقدم ، قد اتخذت من سنة ١٩٦٩م عاما للاحتفال بالعيد الألفى لبنائها وإنشائها ، فإن هذا التاريخ الذى اعتدنا أن نحدد به بدء ميلادها - (سنة ٩٦٩م) - وهذه السنين الألف التى درجنا الآن على اعتبارها عمرًا لها ، إنما هى « حقيقة » تاريخية لابد وأن تناقش ، وخاصة فى مثل هذه المناسبة ، وفى هذا المقام بالذات .

وبادىء ذى بدء ، فإن هدفنا من وراء جلاء هذه الجزئية من جزئيات الحقائق المتعلقة بتاريخ عاصمتنا ، ليس تصحيح الرقم الذى بلغته من عمرها المديد ، ولا هو تقديم وجهة نظر متميزة وجديدة فى رقم من الأرقام التى تحفل بها كتب التاريخ ، بقدر ما نستهدف إبراز حقيقة هامة فيما يتعلق بعاصمة الوطن الذى نعيش فيه ونخلص فى حبه والولاء له ، تستطيع أن تمثل بالنسبة لنا المنظار الذى نفضل النظر من خلاله لتاريخ بلادنا ، والزاوية التى نميل إلى أن نرى منها التطورات والمراحل والحضارات التى مرت على مصر ، والتى شهدها وساهم فى بنائها وبلورتها أجدادنا منذ أقدم عصور التاريخ . . وهما منظار وزاوية نفضل استخدامهما فى الرؤية ، ونحن ندرس تاريخنا القومى والوطنى لمجتمعنا العربى الكبير .

ذلك ، أنه إذا كنا قد جعلنا من سنة ١٩٦٩م عام الاحتفال بالعيد الألفى

لإنشاء مدينة القاهرة ، على يد القائد جوهر الصقلى ، الذى فتح مصر قائدًا لجيش الخليفة الفاطمى المعز لدين الله (٣٤١ ـ ٣٦٥هـ ، ٩٥٢ ـ ٩٧٥م) ، حيث وضع أساسات أبنيتها فى يوليو سنة ٩٦٠م ـ (سنة ٣٥٨هـ) على مساحة مربعة يبلغ طول كل ضلع من أضلاعها ألفا ومائتى ياردة[1] ، فإننا يجب أن نعلم أن إقامة هذا البناء لم يكن بدء ميلاد هذه العاصمة ، كما أن الموقع الذى أقامها عليه جوهر لم يكن اختيارًا مطلقًا من جانب هذا القائد الفاطمى الكبير .

فمنذ أن قام فى مصر الفرعونية حكم الملك العظيم « مينا » ، الذى وحد شمال البلاد مع جنوبها ، وبنى لها عاصمتها الجديدة « منف » (ممفيس) فى نحو سنة ٣٤٠٠ق . م ، نستطيع أن نقول إن كل أنظمة الحكم التى تعاقبت على مصر ، والتى أراد أصحابها أن يكونوا قريبين من روح هذا الشعب أو ملتحمين بهذه الروح ، قد جعلوا من هذه العاصمة ذاتها ، أو من إحدى ضواحيها ، أو من المناطق التى أصبحت امتداداً لها ، العاصمة التى تحكم منها البلاد ، بحيث نستطيع أن نقول إن جميع العواصم التى خفق لها قلب مصر ، والتى منحها الشعب حبه وولاءه إنها كانت بمثابة تطورات مستحدثة ، وصور متجددة لتلك العاصمة التى بناها « مينا » منذ أكثر من خمسة آلاف عام .

و إذا كانت الإضافة ذات القيمة ، التى نسعى إلى تقديمها هنا من خلال إثبات هذه الحقيقة ، إنها تتلخص فى أن وحدة العواصم المصرية إنها هى صنو لتجددها وتطورها وتعددها ، بقدر ما نجد أن تعدد المراحل التاريخية والحقب الزمنية والأطوار الحضارية التى مرت بهذه البلاد إنها هى صنو لوحدة تاريخ هذه البلاد ، وصمود شخصيتها الأصيلة المتطورة لكل المحن والأحداث والتغيرات التى رماها بها الأعداء منذ تاريخها القديم . إذا كانت هذه الحقيقة البسيطة ، والعميقة فى ذات الوقت ، هى ثمرة وجهة النظر التى نجتهد لعرضها و إبرازها بين يدى هذا

(١) ستانلى لينبول (سيرة القاهرة) : ص١٢٢ ، ١٢٤ ، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن . ود. على إبراهيم حسن و إدوارد حليم . ط . القاهرة سنة ١٩٥٠م.

البحث ، فالأمر المؤكد أنها حقيقة وإضافة تستحقان منا وقفة تضمن لهما الوضوح والجلاء والإبراز ، وإن يكن الحيز الذى نسوق فى إطاره هذا الحديث إنما يدعونا إلى تكثيفها فى عدد محدود من النقاط :

● فالعاصمة المصرية القديمة ، التى بناها « مينا » قبل ميلاد المسيح بنحو ٣٤٠٠ عام ، كان موقعها على الضفة الغربية لنهر النيل ، الذى قيل إن «مينا» قد حول مجراه يومئذ كى يبنى لمصر هذه العاصمة ، التى تطل منها السلطة المركزية على الوطن الذى بنيت وحدته منذ ذلك التاريخ . وحول « منف » (ممفيس) هذه ، امتد العمران على مر الزمن ، واتسعت البنايات ، وتفرعت الضواحى ، وانتشرت من حولها الآثار ، وبنيت الأهرامات : أهرامات سقارة ، ودهشور ، وبشت ، وميدوم ، وهوارة من الجنوب ، وأهرامات الجيزة من الشمال . وموقع هذه العاصمة القديمة الآن ، على وجه التحديد ، مدينة «البدرشين» وقرية « ميت رهينة » ، جنوبى الجيزة ، وعلى الضفة الغربية لنهر النيل ، فى مقابل ضاحية « حلوان » .

● ثم جاء حين من الدهر ، اتخذ فيه الغزاة الأجانب ، وبخاصة الهكسوس ، لمصر عاصمة أخرى غير « منف» . وأصاب هذه المدينةَ الكثيرُ من الإهمال ، وعدت عليها عوادى الأيام . ولكن هذا الموقع وهذا المكان ظلا بالنسبة لهذا الوطن القلبَ والعاصمةَ التى يمنحها الناس المحبة والود والولاء . وعندما امتد عمرانها عبر النيل ، نجدها تبعث مرة أخرى فى صورة ذلك الامتداد الذى تمثل فى تلك المدينة ذات التاريخ الغامض ، والتى وجدها الفاتحون العرب على الضفة الشرقية للنيل فى مقابل الجيزة ، والتى كانت أحياؤها تمتد إلى الشمال وإلى الجنوب من «حصن بابليون » الشهير فى ذلك التاريخ .

وإذا كان الغزاة الرومان قد صنعوا مع مدينة « مصر » ـ عندما بنى الإسكندر الأكبر مدينة الإسكندرية وجعلها عاصمة للبلاد فى سنة ٣٣٢ق . م ـ ما صنعه الهكسوس مع « منف » قبل ذلك التاريخ ، فإن رفض الشعب المصرى للسلطة الرومانية ، وللسلطان الذى مد فى عمرها على يد البطالسة ، قد جعل ولاء هذا

الشعب ممنوحًا « لمصر » دائمًا ، بـل وجعل من الإسكندرية ، مدينـة أجنبية وغريبة عن روح الوطن ، وحـاضرة للجاليات الأجنبية أكثر منها عاصمـة صادقة التمثيل لقسمات هذه البلاد .

● فـإذا ما جـاء العـرب المسلمون إلى مصر فـاتحين لها ، ومحرريـن لأرضها مـن سلطان الرومان فى سنة ٦٣٩م ـ (سنة ١٨ هـــ) ، نجد قائدهم عمرو بن العاص يقيم لهذا الوطن عاصمة جديـدة تحمل اسم « الفسطاط » فى سنة ٦٤١ م ـ (سنة ٢١ هـــ) . وإذا بهذه العـاصمة الجديـدة تقـام على مقـربـة من مـدينـة « مصر » الفرعونيـة ، وإلى الشمال من حصن « بابليون » ، الذى يقـع هو الآخر إلى الشمال الشرقى ـ عبر النيل ـ من مدينة « مينا » « ممفيس » .

● حتى إذا كان الانقلاب السياسى والفكرى والحضارى ، الذى أحل سلطان العباسيين مكان سلطان الأمويين فى سنة ٧٥٠ م ـ (سنة ١٣٣هـ) ، وجدنا ولاية مصر تصبـح من نصيـب الأمير العبـاسى « صـالـح » ، أحد إخـوة أمير المؤمنين العباسى السفاح ، فيبعث إليها ، نيابة عنه ، « أبا عون » الذى يقيم لها عاصمة جديدة غير الفسطاط فى سنة ٧٥١م ـ (سنة ١٣٤ هـ) ، ويسميها « العسكر » ، لأنها كانت فى البداية مكانًا لجيشه وشرطتـه . فإذا موقع « العسكر » هذه ، إنما هو إلى الشمال الشرقى من الفسطاط .

● فـإذا ما حكـم أحمد بن طـولون مصر مـن قبل العبـاسيين ، ثم مستقـلاً بها استقـلالاً ذاتيًا ، بـل وحقيقيًا ، عـن سلطـان خلفاء بغـداد ، نجده ينشـىء لها عاصمـة جديـدة يسميها « القطـائع » فى سنة ٨٧٠م ـــ (سنة ٢٥٨ هـــ) . فإذا بموقع هذه العاصمة الجديدة إنما هو إلى الشمال الشرقى من « العسكر » .

● فإذا ما جاء القائد الفاطمى جوهر الصقلى ليفتح مصر ، وليزيل منها حكم الأسرة الإخشيديـة المغلف بغلالـة رقيقة من الـولاء للعباسيين ، وليقيم العـاصمة الجديدة « القـاهرة » فى سنـة ٩٦٩م ـ (سنـة ٣٥٨ هـ) ، فـإننا نجـد موقـع هذه العاصمة الجديدة إلى الشمال الشرقى من مدينة « القطائع » .

● حتى إذا جاء صلاح الدين الأيوبى إلى مصر جنديًا فى سنة ١١٦٩ م ـ (سنة ٥٦٥ هـ) ليصبح بعد قليل وزيرًا ، ثم سلطانًا ، نجده يشرع فى سنة ١١٧٦ ـ ١١٧٧ م ـ (سنة ٥٧٢ ـ ٥٧٣ هـ) فى بناء القلعة الشهيرة والسور الذى ضم فى أحضانه كل العواصم العربية الإسلامية لمصر منذ الفتح العربى لها حتى ذلك الحين ، وهو السور الذى بلغ طوله ٣٠٢ و ٢٩ ذراع ، والذى توفى صلاح الدين قبل أن يكتمل إنشاؤه ، ثم اكتمل فى عهد أخيه السلطان الكامل سنة ١٢٠٧ ـ ١٢٠٨ م (سنة ٦٠٤ ـ ٦٠٥ هـ) والذى قام ليجسد الوحدة الحقيقية للعاصمة ، رمزًا لوحدة هذا التاريخ العربى الإسلامى لهذه البلاد .

● فإذا ما جئنا اليوم للحديث عن عمر القاهرة ، فى ظل تصور جديد لأبعاد هذه العاصمة وامتداداتها العمرانية ، نعبر عنه بعبارة « القاهرة الكبرى » التى تمتد لتشمل مناطق آثار الفراعنة عبر النيل على الضفة الغربية للنهر الخالد ، فإننا نستطيع أن نقول : إن قاهرة اليوم إنما هى الامتداد الحضارى والتاريخى والمعمارى ، الحى ، والمتطور ، وأيضًا المتحد ، لهذه العاصمة الفرعونية القديمة التى بناها «مينا» باسم « ممفيس» فى سنة ٣٤٠٠ ق . م ، وأن هذه الوحدة المتطورة لهذه العاصمة ، إنما هى رمز للوحدة المتطورة لتاريخ هذا الشعب وهذا الوطن عبر هذه الأحقاب المتطاولة من التاريخ ، وأيضًا هى المفتاح الذى لا مفتاح سواه لفهم روح هذا الشعب ، وكنه الحضارة التى صنعها ، ولفض الكثير من المغاليق التى قد يبصرها البعض فى صفحات هذا التاريخ .

وإذا كانت هذه النقاط التى كثفنا فيها وجهة النظر هذه ، قد أفضت بنا إلى هذه الحقيقة الهامة ، فإنها قد أكدت ولاشك ما سبق أن قدمناه من أننا بغير التجاوز الشديد ، لانستطيع أن نقول إن عمر القاهرة الآن ألف عام فقط لا غير! .

فإذا عنَّ للبعض أن يقول : إن تاريخ الميلاد الذى احتفلنا بمرور ألف عام على حلوله بالنسبة لمدينتنا هذه ، إنما هو تاريخ ميلاد تسميتها بهذا الاسم الجديد والأخاذ ـ « القاهرة » ـ والذى جاء تعبيرًا عن مرحلة تطورية جديدة فى عمرها

المديد ، عندمـا فتحت مصر من قبل الفاطميين ، ورمزاً للـدور الجديد ، والأكثر فاعلية وتأثيرًا ، الذى أصبح لمصر منذ ذلك الحين فى المحيط العربى من الخليج إلى المحيط ، والعـالم الإسلامى فيما هو أبعـد من الخليج شرقًا و إلى الجنـوب الشرقى ، وما هو خلف الحزام الصحراوى الذى يلى بـلاد الشمال الإفريقى من الجنوب ـ إذا ما عـنَّ للبعض أن يسـوق مثل هذا الحديـث ، فإننا نستطيـع أن نجيبه بـأن اسم «القاهرة » . . فى الرواية الأدق والتصور الأكثـر منطقية ، لم يطلق على هذه المدينة الجديدة التى بناها جوهر فى سنة ٩٦٩ م عنـدما شرع فى بنائها ، ولا عندما اكتمل له هذا البناء . بل لقد سماها « المنصورية » فى ذلك الحين ، لأن هذه المدينة كانت يومئذ بالنسبة لجوهر الصقلى ضاحيـة ملكية ، يعدها لاستقبال أمير المؤمنين المعز لدين الله الفاطمى ، وكذلك كانت حصنًا دفاعيًا يقى العاصمة الأصلية « مصر » (الفسطاط والعسكر والقطائع) من هجمات القرامطـة التى كانت البلاد تتعرض لها من الشرق فى ذلك الحين . ولقد سماها « المنصوريـة » ، تقربًا إلى مولاه المعز بن الخليفة « المنصور» . كما كانت عاصمة الدولة الفاطمية فى المغرب (تونس) تسمى « المنصورية » كذلك . وكما كان موقعها بـالنسبة لمدينة « القيروان » هو نفس موقع « منصوريـة » جوهر الصقلى من « مصر » ، العـاصمة الأصلية للبلاد ، بـل ولقد أطلق جوهر على بعض أبواب المدينة الجديـدة ، ضمن ما أطلق من أسماء ، اسم «باب زويلة » و « باب الفتوح » ، وهى أسماء ، وإن ارتبطت بقبائل مغربية كانت تحارب ضمن قوات الفتح الفاطمى لمصر ، إلاّ أنها قـد كانت كذلك أسماء لبعض أبواب «منصوريـة» المغرب . أما تاريخ ميـلاد اسم « القاهرة » ، ومناسبـة إطلاقه على هذه العـاصمة الجديـدة ، فلقد جاءا مـع وصول المعـز لديـن الله إلى البلاد ، ليستقر بها ويحكـم منها دولتـه الجديدة المديـدة ، حيث سماهـا «القاهـرة » لمغزى سياسـى أراد من خلفه الإعـلان عن أن هذه العاصمـة والسلطة التى يحكـم منها ستقهران بقايا النظـام العباسى المتربع على عرش بغداد . وكـانت هذه التسمية ، بغد بناء جوهر لها بأربع سنوات .

أمـا أولئك الـذين ينسبـون إلى جوهـر الصقلى فضل اختيـار هذا الاســم ، أو

ينسبون فضل اختياره إلى ذلك الغراب الذى وقف على الأسلاك ذات الأجراس فجعلها تدق مؤذنة لعمال البناء بوضع أحجار الأساس ، بينما كان المنجمون يرقبون السماء ينتظرون ظهور نجم سعيد ليبدأ البناء ساعة طلوعه ، فحكم عليهم الغراب بأن يكون بدء البناء ساعة ظهور النجم « القاهر » ، ذى الطالع غير السعيد - أما الذين يذهبون هذا المذهب فى تعليل هذه التسمية ، فلا أحسب إلا أنهم قد قادهم شغف الفاطميين بالنجوم والتنجيم إلى تصديق أسطورة ترمز إلى أن طالع هذه العاصمة إنما هو طالع غير سعيد ، وهى أسطورة تخدم أعداء الفاطميين أكثر مما تخدم الدولة الفتية التى بنيت القاهرة عاصمة لها ورمزاً لشبابها العملاق الذى تبدى فى ذلك الحين [1] .

(١) راجع فى ذلك خطط المقريزى : جـ ٢ ، ص ١٧٩ ــ ١٨٠ ط . بولاق . و(اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا) للمقريزى أيضًا : ص ١١١ , ١١٢ تحقيق د. جمال الدين الشيال ، ط . القاهرة سنة ١٩٦٧م .

الفصل الثانى

مصـــر ..
هل فتحت أبوابها لكل الغزاة ؟!

● دراسة لمغزى الفتح الشيعى الفاطمى لمصر السنية .. وموقف العنصر الوطنى المصرى من هذا الفتح .. ولطبيعة السلطة التى كانت تمثلها الدولة الفاطمية : سياسيًّا وحضاريًّا وفكريًّا .. ولدور مصر الذى تميز بقيام ذلك النظام ..

تساؤل .. يحير الكثيرين

ولكن . . إذا كانت هذه العاصمة الجديدة ، إنها كانت امتداداً عمرانيًا وحضاريًا وتاريخيًا لما سبقها من العواصم ، التى تجاورت وتلاحمت وتعاقبت لتجسد وحدة تاريخ هذه البلاد ، برغم تعدد الغزاة وتنوع سلطات هؤلاء الغزاة ، فمما لا شك فيه أن هذا الحديث إنها يمثل مناخًا صالحًا لتوليد التساؤل حول موقف الإنسان المصرى من هؤلاء الغزاة ، وهل كان عاشقًا للعبودية إلى هذا الحد الذى جعله « يرحب» بكل قادم ؟! أو على الأقل سلبيًا إلى الحد الذى جعله يدير ظهره لمسرح الأحداث السياسية والعسكرية ، التى تعاقب تمثيلها على أرضه وبين ربوع العواصم التى بنيت على ضفاف نيله العظيم ؟!

وإذا كان الإطار الذى نسوق فيه هذا الحديث ، لا يتيح لنا الفسحة كى نتعقب موقف الإنسان المصرى من تعاقب السلطات والغزوات التى شهدتها بلاده فى حقب كثيرة ومتعددة من التاريخ ، فإننا ولا بد أن نلمس هذه القضية فيما يتعلق بالفتح الفاطمى لهذه البلاد ، وهو الفتح الذى أثمر ذلك الامتداد الجديد فى عاصمتها ، « القاهرة » . ولعل هذا التناول الموجز لهذه القضية ، ونحن بصدد الفتح الفاطمى ، يلقى بعض الأضواء على الأحداث المشابهة له فى فترات أخرى من تاريخ هذه البلاد .

ففى الفترة ، التى تم فيها فتح مصر من قبل الجيش الشيعى الفاطمى الذى قاده جوهر الصقلى ، والتى يعجب البعض كيف تم فيها قبول شعب مصر

«السنى » السلفى لحكم الشيعة دون مقاومة شعبية يسجلها له التاريخ !! بل ودون أن يشغل المؤرخون أنفسهم بأى حديث عن موقف العنصر الوطنى من هذه الأحداث الهامة ، والتغيرات الجذرية العميقة التى أصابت السلطة فى البلاد ، مما يؤسس عليه هذا البعض دعوى سلبية « العنصر » المصرى على مر التاريخ ، و«خنوعه » الدائم للغزاة المتعاقبين !!

إن هذه الفترة التاريخية ، تحمل فى طيات قسماتها الأساسية والبارزة عددًا من الحقائق ، التى تمثّل بعضَ الإجابة عن هذا التساؤل الذى يحير الكثيرين . وهى إجابة ، فيها الكثير من الإنصاف الموضوعى لمصر والمصريين .

١ ـ فلقد كانت هذه الفترة الزمنية مرحلةً من التاريخ العربى الإسلامى ، شهدت مدًّا سياسيًّا وفكريًّا شيعيًّا ، أخذ يتعقب السلطة العباسية السلفية المحافظة فى كل مكان ، ويسحب من تحت أقدامها الولاياتِ والإماراتِ ، وينتزع من فوق هاماتها التيجان .

● ففى أقصى المشرق العربى الإسلامى ، كانت الدولة « البويهية » ، وهى دولة شيعية ، قد بسطت نفوذها ، وامتد سلطانها ليشمل بغداد نفسها ، وليصبح الخليفة العباسى « السنى » السلفى مجردَ دمية فى أيديهم منذ سنة ٩٤٥ م ـ (سنة ٣٣٤ هـ) . هذا النفوذ البويهى الشيعى ، قد ظل مرفرفًا على كثير من البقاع العربية الإسلامية ، التى يذهب جمهورها فى عقائده مذهب السلف أكثر من قرن من الزمان (١) .

● وفى الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة العربية ، وفى منطقة الخليج على وجه التحديد ، قامت للقرامطة ، وهم تيار يسارى فى الحركة الشيعية ، دولة بزعامة أبى سعيد الجنابى فى سنة ٨٨٩م ـ (سنة ٢٨٦ هـ) ، ثم أخذت تمد سلطانها إلى بلاد أخرى ومناطق مجاورة ، فاستولت على اليمامة سنة ٩٠٣م ـ (سنة ٢٩١ هـ) ،

(١) فيليب حتى ، وآخرون (تاريخ العرب) « مطول» : جـ ٢ ، ص ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، الطبعة الثانية ، بيروت سنة ١٩٥٣م .

ثم عمان ، ثم احتلت مكة لفترة من الزمن سنة ٩٣٠م ـ (سنة ٣١٨ هـ) . وأخذت تغير على العراق والشام . ودخلت فى تحالفات مؤقتة وتكتيكية مع الخلافة العباسية ، وفرضت عليها الأتاوت . كما غزت اليمن بجيش يقوده أحد رجالاتها وهو « نجار حرفى » يسمى « الحسن بن فرج الصناديقى » فى سنة ٣٠٥ هـ ـ (سنة ٩١٧م) ، وطمعت فى مصر وبذلت العديد من المحاولات للاستيلاء عليها زمن الإخشيديين وبعد فتح الفاطميين .

● وفى نفس الفترة الزمنية ، قامت فى اليمن دولة للشيعة الزيديين على يد الإمام الهادى يحيى بن الحسين (٨٥٩ ـ ٩١٠م ، ٢٤٥ ـ ٢٩٨ هـ) ، وهى الدولة التى قاتلت القرامطة وأجلتهم عن البلاد ، كما قاتلت العباسيين .

● وهى ذات الفترة الزمنية التى قامت فيها الدولة الفاطمية الشيعية فى المغرب سنة ٩٠٩ م ـ (سنة ٢٩٧ هـ) ، ثم فتحت مصر سنة ٣٥٨ هـ ـ (٩٦٩ م) ، ثم امتد سلطانها إلى الحجاز فى سنة ٣٦٣ هـ ـ (سنة ٩٧٣م)، بل وإلى الموصل بالعراق ، حيث خُطب على منابرها مرة للخليفة الفاطمى العزيز (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ ، ٩٧٥ ـ ٩٩٦م) ، وإلى بغداد نفسها ، حيث خُطب على منابرها للفاطميين أربعين أسبوعًا فى سنة ١٠٥٨ ـ ١٠٥٩م [(١)] .

وهكذا ، لم يكن الفتح الشيعى الفاطمى للمجتمع المصرى السلفى أمرًا فريدًا فى نوعه . ومن ثم فليس فيه أى شبهة يمكن أن يتعلق بها أولئك الذين يتوهمون فيه دليلاً على سلبية المصريين وخضوعهم المستمر والأبدى للغزاة والفاتحين !

٢ ـ لقد كانت فى الطبيعة المتسامحة لدى الشعب المصرى إزاء المذاهب والفرق والمعتقدات ، التى تضطرب بها الحياة الفكرية العربية الإسلامية ، تربةٌ خصبة ساعدت على تقبل مصر لهذا الطابع الجديد الذى تصطبغ به السلطة الفاطمية

---

(١) المصدر السابق : جـ٣ ، ص ٧٣٤ ، وجـ٢ ، ص ٥٣٤ ـ ٥٣٦ . واتعاظ الحنفا : ص ١٦٦ ، ١٦٧ . وسيرة القاهرة : ص ١٧٧ .

الجديدة . فالتعصب المذهبى والطائفى ، لم يكن نطاقه يتعدى ، فى أغلب الأحيان ، إطار الفقهاء والساسة الذين يتاجرون بالمذاهب والأديان . أما جمهور الناس البسطاء ، فلقد كانت نظرتهم أكثر تسامحًا ، وأفقهم الاعتقادى أكثر رحابة ، ومصالحهم الحقيقية تقودهم إلى موقف نابع من الإخاء الوطنى ، بصرف النظر عن اختلاف المذاهب الإسلامية التى تنتسب جميعها إلى أجلاء الصحابة وخيرة التابعين ، كما تلتمس جميعها التأييد عن طريق النصوص المأخوذة من القرآن الكريم وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام . ولقد ساعد على ذلك ، أنه كانت « للخلافة الفاطمية سياسة ثابتة فى استمالة أهل السنة والجماعة ، وتمكينهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم . وكانت المذاهب السنية المعروفة . . ظاهرة الشعائر فى مملكتهم ، وكان مذهب مالك بالأخص ذائعًا ، ومن سأل الحكم به أجيب إلى طلبه »[1] ويشهد لذلك الأمانُ الذى أعطاه جوهر الصقلى لأهل مصر بعد فتحها ، والذى تعهد فيه بترك الناس على مذاهبهم ، إذ الإسلام «سنة واحدة وشريعة متبعة »[2] .

٣ ـ كما أن قرب اعتناق الجمهور المصرى للإسلام ، وحداثة عهده بالحضارة العربية والتعريب ، لم يكونا يؤهلانه للتحزب الشديد والتعصب الأعمى لمواقف اعتقادية ، تنتسب إلى خلافات سياسية تمت زمنى على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان . وهو جمهور ، لم يكن يومها قد دخل ، من حيث جمهرته العظمى ، حلبة العروبة والإسلام بعد . كما أن القبائل العربية ، التى كانت تعيش بمصر ، والتى كانت تشارك فى الأحداث السياسية والعامة مشاركة أكثر إيجابية ، قد كانت ترى ـ برغم موقفها السلفى فى العقائد ـ فى الفاطميين سلطة عربية شابة وفتية إذا ما قورنت بسلطة الصبية الإخشيديين وكافور الإخشيدى العبد الخصى ، الذى سيطر على الدولة المصرية الإخشيدية عن طريق وصايته على هؤلاء الأطفال ، وإذا

(١) محمد عبد الله عنان (الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية) : ص ٣٧٩ . الطبعة الثانية . القاهرة سنة ١٩٥٩م (نقلاً عن صبح الأعشى : جـ٣ ، ص ٥٢٤) .

(٢) اتعاظ الحنفا : ص ١٠٥ .

ما قورنت كذلك بالأشباح العباسية المتهاوية فى بغداد ، والتى لم يعد لها من معنى الخلافة ولا رسومها سوى الخِلَع والألقاب !

فإذا كانت تلك الخلافة العباسية تساوى فى نظرهم ، ونظر المصريين عمومًا ، وهى التى أصبحت تحت رحمة « البويهيين » و « القرامطة » ، فضلاً عن الجنود الأتراك الذين سيطروا على قصورها منذ ولى عصرها الذهبى ، إذا ما قورنت بالدولة الفاطمية الفتية صاحبة الأسطول المسيطر فى البحر الأبيض ، والذى أخضع لسلطانها جزر « صقلية » و « سردينيا » و « قورسيقا » و « مالطة » ، والذى هدد السواحل الجنوبية لفرنسا وإيطاليا وأغار عليها مرارًا ، وعاد منها بالغنائم والأسلاب ، كما غزا سواحل إسبانيا الأموية ؟! كل ذلك منذ ما قبل فتح مصر بأكثر من أربعين عامًا [١].

٤ ـ أضف إلى ذلك أن الدولة الفاطمية ، كشأن الحركات الشيعية ، إنما كانت تعتمد على الدعاة وسلطان الفكر وغزو العقول قبل أن توجه الجيوش إلى فتح البلاد. ولقد كانت للفاطميين عناية كبيرة بالتمهيدين الفكرى والسياسى لفتح مصر، لأنها لم تكن بالنسبة إليهم مجرد أرض خصبة تضاف إلى خلافتهم ، وإنما كانت أملهم فى إقامة مركز يتوسط العالم العربى لتمتد منه سيطرتهم على كل بلاد العرب والمسلمين ، والقاعدة التى من فوقها يمكن لهم إزالة بقايا حكم بنى العباس من بغداد . وإذا كانت المحاولات الأولى للغزو الفاطمى لمصر لم تكلل بالنجاح ، فإن هذا الفشل قد علمهم المزيد من الإصرار ، والمزيد من المثابرة على بذل الجهد ، وفى الميادين الفكرية والسياسية بالذات .

ولقد سجل التاريخ أن المعز لدين الله الفاطمى قد أمر فى سنة ٣٥٥هـ (سنة ٩٦٥ م) ، وقبل فتح مصر بثلاث سنوات ، وقبل وفاة كافور الإخشيدى بعامين ، بأن تحفر آبار المياه للجيش الذى سيفتحها على طول الطريق من المغرب حتى حدودها ! وأن يبنى له فى كل منزلة قصر ينزل به ، وهو فى الطريق إليها بعد

(١) تاريخ العرب : جـ ٣ ، ص ٧٣٣ ، وسيرة القاهرة : ص ١١٥ .

الفتح ! ! كما سيّر مع جوهر الصقلى جيشًا قوامه مائة ألف مقاتل ، وصفه المفاوضون المصريون الذين فاوضوا جوهرا فى الأمان بأنه « مثل جموع عرفات كثرة وعدة » [1] ! وقال فيه الشاعر الشيعى محمد بن هانىء الأندلسى (٣٢٦ ـ ٣٦٢ هـ ، ٩٣٧ ـ ٩٧٢ م) :

رأيتُ بعينِي فوق ما كنتُ أسمعُ وقد راعنى يومٌ مِن الحشر أروعُ
غداةَ كأنَّ الأفْق سُدَّ بمثِلهِ فعاد غروبُ الشمسِ من حيثُ تطلع
ألاَ إنّ هذا حشْدُ مَنْ لمْ يذقْ لهُ غرارَ الكَرَى جفنٌ ولا باتَ يهجع [2]

وزود هذا الجيش بأموال ، بلغ مجموعها أربعة وعشرين ألف ألف دينار ، عبئت فى ألف وخمسمائة صندوق ، كما يقول المقريزى [3].

وإذا كان هذا الجانب نموذجًا للجهد المادى الذى بذله الفاطميون لفتح مصر، وهو جهد أجاد ابن هانئ وصفه ، عندما قال إنه قد تطلب من القائم عليه ألا يهجع ولا يذوق جفنه النوم . فإن الجهد الفكرى والدعائى والسياسى الذى قام به الدعاة الفاطميون السريون والعلنيون ، تمهيدًا لهذا الفتح ، لم يكن بأى حال من الأحوال بأقلَّ من تجييش الجيوش وتجهيزها بالأموال والسلاح . ولقد بلغ من قوة نفوذ الحزب الفاطمى الشيعى فى مصر ، زمن الإخشيديين ، أن المعز قد بعث إليهم بعد وفاة كافور الإخشيدى سنة ٣٥٧ هـ (سنة ٩٦٧ م) « بالبنود » (الشارات والأعلام) ، فوزعت على الأنصار والأتباع ـ وبينهم كثير من جنود الدولة ، الذين أصبح هواهم وولاؤهم للفاتح المنتظر ـ وأمرهم بنشرها ورفعها ، عندما تقترب جيوش الفتح من البلاد . وهذا ما كان . أى أن الغزو لم يأت من الخارج ، بقدر ما تم من الداخل . ولم يكن جيش جوهر الصقلى بأكثر من السيف

---

(١) اتعاظ الحنفا : ص ٩٦ .
(٢) الحاكم بأمر الله : ص ٢٨ .
(٣) اتعاظ حنفا : ص ٩٧ ، ١١١ .

الذى كسرت به القشرة الإخشيدية ، لتتكشف مصر عن مجتمع قد حبل منذ مدة ، وبدرجة كافية ، بهذا العهد الفاطمى الجديد .

٥ ـ ولم يكن الولاء ، الذى منحه الشعب المصرى للدولة الفاطمية الشابة والفتية ، منذ ما قبل الفتح ، وليد اختيار فكرى انحاز فيه إلى صف التشيع ، وأدار به ظهره للمجتمع الإخشيدى المملوكى ، الذى فقد الاحترام ومؤهلات البقاء ، بقدر ما كان وليد إدانة شعبية لذلك التفسخ والانهيار الاجتماعى والأخلاقى الذى بلغه هذا المجتمع ، وبخاصة شرائحه الحاكمة والمتسلطة . ويكفى أن نعلم أن التحلل الأخلاقى قد بلغ بأميرات البيت الحاكم حد المجاهرة بالشذوذ فى التمتع بمثيلاتهن من الجوارى والنساء ! وأن بلوغ أمر ذلك المستوى من التفسخ إلى أسماع الفاطميين ، قد شجعهم وأعانهم على تحديد « ساعة الصفر » التى يغزون فيها البلاد .

فلقد روى أنه كان لأم الأمراء الفاطميين بالمغرب جارية بعثت بها من يبيعها لها فى أسواق الرقيق بمصر ، فطلب الوكيل فيها ألف دينار ، فجاءت امرأة شابة على حمار ، فلم تزل حتى اشترتها منه بستمائة دينار ، وقيل له : يا مغربى ، هذه بنت الإخشيداشترت الجارية تتمتع بها ! وهى ست كافور . فلما عاد (المغربى) أخبر المعز بذلك ، فأمر بإحضار الشيوخ ، وأمر الرجل فحدثهم بخبر الجارية ، ثم قال : « يا إخواننا ، انهضوا إليهم ، فلن يحول بينكم وبينهم شىء ، وإذا كان قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات ملوكهم تخرج وتشترى لنفسها جارية تتمتع بها ، فقد ضعفت نفوس رجالهم ، وذهبت الغيرة منهم ، فانهضوا بنا إليهم . فقالوا : السمع والطاعة ! »[١].

وإذا كان نموذج الأميرة الإخشيدية الشاذة هذه ، إنما يمثل تجسيدًا لتحلل الفئة الحاكمة فى الدولة الإخشيدية ، فإن موقف المعز وحديثه هذا إنما يمثل فتوة الدولة الفاطمية الشابة . ويدعم منه أيضًا ويزيده وضوحًا وجلاء ، حديث المعز إلى

---

(١) المصدر السابق : ص ١٠٠ .

رجالات دولتها وشيوخ قبائلها عندما يحثهم على عدم الإفراط فى العلاقات بالنساء، ويطلب منهم الاكتفاء بزوجة واحدة ، وعدم الوقوع فى حبائل نظم الجوارى والحريم ، فيقول لهم : « الزموا الواحدة ، التى تكون لكم ، ولا تشرهوا فى التكثير منهن ، والرغبة فيهن فيتنغص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعف نحايزكم - (أصولكم وأنسابكم) - فحسب الرجل الواحد الواحدة ، ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم»[1].

٦ - إن الفتح الفاطمى قد كان بالنسبة لمصر والمصريين فتحًا ، ولكنه من نوع جديد .

ففى كل الفتوحات والغزوات التى عرفتها مصر ، سواء أكانت على يد الفرس أم الرومان أم على يد العرب المسلمين زمن عمرو بن العاص ، ثم فى عهدى بنى أمية وبنى العباس ، كانت مصر فى ظلها لا تزيد عن مجرد « ولاية » تتبع مقر كسرى أو قيصر أو عاصمة الخلافة فى المدينة ثم فى دمشق ثم فى بغداد . وحتى فى فترات الاستقلال الذاتى التى بدأها « أحمد بن طولون » ، فإنه قد كان مشوبًا بالكثير من عناصر التبعية لبلاط الخلفاء العباسيين .

أما الفاطميون ، فلقد كانوا فاتحين ، يريدون تحويل مصر إلى عاصمة للإمبراطورية العظيمة التى امتدت تقريبًا بطول بلاد العرب المسلمين وعرضها فى ذلك الحين . وإذا كانت مصر قد شهدت الفاتحين الذين يُتْبِعون عمليةَ الفتح باستنزاف خيراتها ، ليبعثوا بها إلى القواعد والمدن التى جيشت لفتحها الجيوش ، فإنها قد شهدت ، للمرة الأولى ، فاتحًا لا يرسل خيراتها خارج حدودها ، بل يأتى إليها فى موكب جليل مهيب ، بعد فتحها بأربع سنوات ، ومعه أهل بيته وحاشية ملكه ، بل وتوابيت بها رفات آبائه : « المهدى » و « القائم » و« المنصور» [2]،

---

(١) المصدر السابق : ص ٩٦ . (٢) المصدر السابق : ص ١٣٤ .

تحف بهم قافلة تتكـون من ألفى جمل من جمال قبيلـة « زناته» تحمل الأمـوال والمتاع والتحف والرياش ، كما تحمل الدنانير الـذهبية التى سبكت ، كى يسهل حملها ، « على شكل طواحين جعل على كل جمل قطعتـان » ، حتى « استعظم ذلك الجند والرعية ، وصاروا يقفون فى الطـرق لرؤية بيت المال المحمول» [١]! فلقد أصبحت مصر عاصمة ، لا ولاية ، وبدأ دورها القيادى فى المنطقة ، لأنه كان قد اكتمل بها يومئذ التعرب والتعريب .

٧ ـ أضف إلى ذلك كله ، بل وفوق ذلك كله ، تلك الأسباب الاقتصادية التى مهدت للفتح الفـاطمى ، وجعلت المصريين لا يفتحون صـدورهم فقـط للفاتح الجديد، بـل ويكاتبـونه ويطلبـون إليه التعجيـل بالمجـىء . وهى الأسبـاب التى بلغت ذروتها فى سلسلة المجاعات التى شهدها عصر الإخشيديين [٢].

● ففى شهر المحـرم سنة ٣٣٨ هـ ـ (سنـة ٩٤٩م) وفى عهد الأمير الإخشيدى أبى القاسم أونوجور (٣٣٤ ـ ٣٤٩ هـ ، ٩٤٥ ـ ٩٦٠ م) اشتد الغلاء بالناس ، حتى ثاروا عليه ، وسدوا عليه الطريق ، ومنعوه من صلاة العشاء فى مسجد عمرو ابن العاص .

● وبعد ذلك بثلاث سنوات (٣٤١هـ ـ سنة ٩٥٢م) ، حدثت موجة غلائية جديدة، تلفـت فيها المحاصيل ، وأدت إلى فرار كثير مـن المواطنين وهجرتهم من البلاد .

● وبعد ذلك بعامين ، جاءت موجة غلائيـة جديدة ، بلغ فيها سعر « القمح كل ويبتين ونصف بدينار» [٣]، ثم انعدم وجود القمح نهائيًا من أيدى الناس وأدى

---

(١) المصدر السابق : ص ١٠٠ .

(٢) المقريـزى (كتاب إغـاثة الأمة بكشـف الغمة) : ص ١١ ــ ١٤ تحقيق د. محمـد مصطفى زيادة، د. جمال الدين الشيال ط . القاهرة سنة ١٩٤٠م .

(٣) « الويبـة » ، قديمًا ، تساوى كيلة مصريـة بمكاييلنا الحاليـة . والدينار يساوى ستين قـرشًا بعملتنا المصريـة الحالية . راجـع : د. ضياء الديـن الريس (الخراج والنظـم المالية للـدولة الإسلامية) : ص ٣٤٢ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ الطبعة الثانية . القاهرة سنة ١٩٦١ م .

سوء الحال بالناس إلى الثورة وامتدت الثورة والمعارك إلى المساجد مما أدى إلى كسر منبر الجامع بمدينة مصر.

● وبعد ذلك بتسع سنوات (سنة ٣٥٢ هـ ـ سنة ٩٦٣م) حدث غلاء شديد امتد تسع سنوات ، وكان الحكم يومئذ للأمير على بن الإخشيد (٣٤٩ ـ ٣٥٥هـ ، ٩٦٠ ـ ٩٦٦ م) على عهد كافور الإخشيدى ، ولم يرتفع ماء النيل عامها عن خمسة عشر ذراعًا وأربعة أصابع ، وتضاعف سعر السلع الغذائية إلى ثلاثة أضعاف . «وعز الخبز فلم يوجد ، وزاد الغلاء حتى بلغ القمح كل ويبتين بدينار » .

● وفى العام التالى من سنوات الشدة هذه (سنة ٣٥٣ هـ ـ سنة ٩٦٤ م) ، اشتد اضطراب ماء النيل وتراوحت زيادته ونقصانه ما بين خمسة عشر ذراعًا وأربعة أصابع وما بين ثلاثة عشر ذراعًا . وعمت الفتن ، وانتشر السلب والنهب ، وتجمهر الناس فى جامع عمرو بن العاص فى يوم الجمعة ، حتى مات رجل وامرأة من شدة الزحام ، ولم يصل الناس يومها صلاة الجمعة بسبب المحنة التى كانت تأخذ منهم بالخناق ! .

● واستمر نقصان ماء النيل فى الأعوام التالية ، حتى بلغ نقصانه الذروة فى العام الذى سبق وفاة كافور الإخشيدى ، حيث لم يتعد اثنى عشر ذراعًا وأصابع ، وهو الأمر الذى لم يقع مثله « فى الملة الإسلامية » كما يقول المقريزى . حتى إذا مات كافور الإخشيدى فى العام التالى (سنة ٣٥٧ هـ ـ سنة ٩٦٧ م) ، « كثر الاضطراب ، وتعددت الفتن ، وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء ، قتل فيها خلق كثير ، وانتهبت أسواق البلد ، وأُحرقت مواضع عديدة ، فاشتد خوف الناس ، وضاعت أموالهم ، وتغيرت نياتهم ، وارتفع السعر ، وتعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل ويبة بدينار . واختلف العسكر ، فلحق كثير منهم بالحسن بن عبد الله بن طغج ، وهو يومئذ « بالرملة » ، وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمى ، وعظم الإرجاف بمسير القرامطة إلى مصر ، وتواترت الأخبار بمجىء عساكر المعز من المغرب ، إلى أن دخلت سنة ٣٥٨هـ ـ (سنة ٩٦٨م) ، ودخل القائد جوهر بعساكر الإمام المعز لدين الله . . » .

فهل بعد هذه الصورة التى يقدمها لنا المقريزى عن المجاعات والغلاء اللذين أصابا المجتمع المصرى قبيل الفتح الفاطمى ، مما أدى إلى « تغير نيات الناس » وهروب معظم الجيش والجند إلى الشام ، ومكاتبة الكثير من الناس ـ بمن فيهم الجند ـ للمعز يطلبون منه تسيير جيشه لفتح البلاد ، هل بعد هذه الصورة ، وخاصة إذا ما أضيفت ملامحها وقسماتها إلى ما قدمنا قبلها من أسباب ، هل بعد ذلك يوجد ما يجعلنا نستغرب تلك السهولة التى فتح بها الفاطميون مصر يومئذ ، وهى التى سبق أن استعصت على جيوشهم من قبل ؟! وهل يستطيع بعد ذلك منصف أن يتخذ من سكوت المصريين على الفتح والفاتحين ذريعة يحاول عن طريقها النيل من إيجابية المصريين إزاء مصيرهم ووطنهم ؟! وهل نستغرب بعد ذلك إذا علمنا أن الذين جالت بخواطرهم مقاومة جيش جوهر الصقلى هم جماعة من الإخشيدية فقط ، ولكن معظم الزعماء المصريين آثروا مهادنة الفاتحين والتفاهم معهم ، وقر رأيهم على أن يتقدموا إلى جوهر بطلب الأمان والصلح ، واتفقوا مع الوزير جعفر بن الفرات على أن يتولى تلك المهمة ، وسألوا أبا جعفر مسلم بن عبد الله الحسينى ، أن يكون سفيرهم لدى الفاتح ، فأجابهم إلى ذلك ! »[1] ؟!

إننا لا نعتقد أن هناك غرابة فى ذلك ، لأن الأسباب التى قدمناها بصدد هذه القضية كافية فى جعلنا نعتقد أن مصر كانت يومئذ قد أصبحت ثمرة ناضجة للقطاف ، ولقطاف الفاطميين على وجه التحديد .

---

(١) الحاكم بأمر الله : ص ٢٩ .

الفصل الثالث

الوجه المشرق لمصر الفاطمية

● دراسة للعصر الذهبى الذى عاشته مصر فى ظل الحكم الفاطمى . . والغنى والترف اللذين شهدهما مجتمعها . . وما احتفلت به يومئذ من أعياد وما حفلت به من نشاط فى مختلف أوجه الحياة وميادينها . .

أزهى العصور المصرية

لله قـــاهـــرةُ المعـــز، فـــإنّها بلـــدٌ تخصَّـــص بـــالمسرَّة والهنـــا
أوَ مـــا تـــرَى فى كـــلِّ قصرٍ مُنْيـــةً مِـن جانبيهـا ، فَهْـيَ مُجتمَعُ المُنَـى

كـان الفاطميـون قد اعتقـدوا ، وهـم محقون فى ذلـك تمامًا ، أن فتـح مصر ، وإقامة مدينة القاهرة قد حسم المعركـة المحتدمة فى العالم العربى الإسلامى لصالح تيار التشيع ضد العباسيين السلفيين ، وأيضًا لصـالح الاتجاه الفاطمـى فى الحركة الشيعية ضد القرامطة والزيدية والبويهيين . ولقد عبر ابن هانئ الأندلسى ، شاعر الشيعة الفاطمية العملاق ، عن هذه الحقيقـة فى بيت من الشعر ، رائع وجامع فى ذات الوقت ، عندما قال :

يقول بنـو العباس : هـل فُتِحتْ مِصْرُ؟! فقل لبنى العباس : قد قُضِىَ الأمرُ [1]!

وإذا كان اختيار جوهر لمكان القاهـرة إلى الشمال الشرقى من العاصمة القديمة (الفسطاط والعسكر والقطائع) محكومًا بذلك « القانون » المصرى القديـم ، الذى استننه الـروح المصرية ، وحافظت عليـه منذ ملكها الفـرعونى « مينا » وعـاصمته الشهيرة « منفيس » ، فـإن اختيار الخلافـة الفاطميـة ، ممثلة فى المعـز لديـن الله ، للقاهرة كعاصمة للخلافة كلها ، إنما كـان محكومًا بذلك الطموح المشروع ، الذى

---

(١) اتعاظ الحنفا : ص ٩٧ .

كانت تذكّيه إمكـانيات الدولة الفتية ، لأن تكـون القاهرة قلبًا لإمبراطوريـة عربية إسلامية ، وأن يكون مركزُها المتوسط لرقعـة الوطن العربى الإسلامى الكبير مؤهِّلاً جديدًا يضاف إلى مـؤهِّلات الخلافة الفاطمية فى معركة تجميـع الإمارات والولايات العربية حول هذه العاصمة الشابة ، وذلك المركز الجديد.

وإذا كانت القاهرة قد مرت بفترات مـن المحن والشدائد فى أواخر عصر الدولة الفاطميـة ، وفيها بعد هذا العصر ، وحتى فى عصرنـا الحديث ، فإن الأمـر المؤكد والذى لا يُخْطئـه وعى البـاحثين المنصفين ، هو أن المعنـى الكبير الذى استهـدفه الفـاطميون مـن وراء اتخاذ القاهـرة عاصمـة لخلافتهم ــ وهو أن تصبـح الحاضرةَ والمنارةَ والقـائدةَ للعالم العـربى الإسـلامى ، والقلـبَ النابـض للحضارة العـربية الإسلامية ـ إن هذا المعنى الكبير قد عاش للقاهرة وعاشت له القاهرة ، ولم تستطع المحن وفترات الشدة التى شهدتها هذه العاصمة منذ إنشائها إلا أن تزيدها ارتباطًا برسالتها هذه ، وقدرة على الوفاء لملايين الوطن العربى الكبير بما عليها تجاههم من التزامات ومسئوليات.

وإذا كان جوهر الصقلى قد قال لأهل مصر ، عنـدما تم له فتحها ، إن غرضه من هـذه الحملة إنما هو « العبـور إلى مصر، ليمضى إلى الجهاد لقتـال الروم »[1]، فإننا نجـد المعز لدين الله بعـد أربع سنوات من هـذا الفتح ، وعندما وصـل ركبه الملكى إلى القـاهرة فى رمضـان سنة ٣٦٢هـــ (سنـة ٩٧٢م) ، وبعد أن خـر لله ساجدًا ومصليًا وشاكرًا ، يجمع إليه الوجوه والأعيان ليؤكد لهم المعنى الذى تحدث عنه جـوهر ، والـذى يؤكّـد النظرةَ الجديـدة لمصر ، والدَّورَ الجديـد لعاصمتهـا ، والرسالـةَ التى تريد الدولـة الفاطمية تحقيقها من وراء هـذا الفتح المبين . وذلك ، عندما يخطب فى الناس قائلاً لهم : إنه لم يـرد بدخول مصر زيادة فى رقعة مملكته ، ولا زيـادة فى الأمــوال والجبايـات ، وإنما أراد مـن وراء ذلــك « إقـامـة الحج والجهاد»[2]. ومن هنا ، كان ذلك المعنى الجديد الذى أشرنا إليه فيما تقدم لهذا

---

(١) المصدر السابق : ـ١٠٨ .

(٢) اليافعى (مرآة الجنان وعبرة اليقظان) : جـ٢ ، ص ٣٨٤ . ط . حيدر آباد بالهند سنة ١٣٣٩هـ

الفتح ، والمركز الجديد الذى أُعد لمصر كى تقوم به ، والدور الجديد والهام ، بل الرئيسى ، الذى أصبح على القاهرة أن تؤديه تجاه كل أنحاء بلاد العرب المسلمين .

وإذا كانت مصر قد ظلت تشهد حكم الفاطميين لها ومنها ما يزيد قليلاً على القرنين من الزمان ، وذلك منذ أن فتحت فى سنة ٩٦٩م ـ (سنة ٣٥٨ هـ) ، حتى إعادة الخطبة لبنى العباس على منابرها بواسطة صلاح الدين الأيوبى ، وموت آخر خلفائها العاضد سنة ١١٧١م ـ سنة ٥٦٧ هـ ، فإننا نستطيع أن نقول : إن نصف هذه الفترة تقريبًا كان ، على وجه الإجمال ، عصر ازدهار وحضارة وتقدم ، سجلت فيها مصر الكثير من الأيادى البيضاء على الحضارة العربية الإسلامية ، وأسهمت أثناءها بالكثير من الأنصبة والإنجازات فى صناعة التقدم التى أنجزت فى ذلك الحين . بينما كان نصفها الآخر ، هو النصفَ المظلم ، الذى بدأ « بالشدة المستنصرية » التى أتت مجاعتها وفوضاها منذ سنة ١٠٦٦م ـ (سنة ٤٥٩ هـ) فى زمن الخليفة المستنصر (١٠٣٥ ـ ١٠٩٤ م ، ٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ) على كل ما هو متحضر ومشرق ومتقدم فى هذه البلاد ، والتى لا نغالى إذا قلنا إنها قد فتحت الباب لتلك الصفحات من التخلف والضعف التى امتدت على طول العصور المملوكية ، وحتى الزحف الاستعمارى الغربى فى العصر الحديث .

وإذا كانت صفحات هذه الحقبة الزمنية ، التى بدأت « بالشدة المستنصرية » ، سيأتى دورها بهذه الدراسة بعد قليل ، فمما لا شك فيه أن تقليب بعض صفحات مصر والقاهرة فى عصرها الذهبى الذى استفتحت به حياتها هو أمر هام ، وجدير ببعض الوقفات المتأملة دائمًا ، المتأنية حينًا ، الموجزة والسريعة حينًا آخر ، جلاءً لوجه الحقيقة فى هذه الحقبة من حقب التاريخ .

الغنى والترف

كان حضور المعز إلى القاهرة بعد إنشائها بأربعة أعوام وتسعة عشر يومًا . وكان موكبه ، الذى سبقت الإشارة إليه ، قد ضم ألفى جمل من إبل قبيلة «زناته» حملت بالمتاع والرياش والأموال ، والذهب الذى سبكت دنانيره على هيئة طواحين ، حتى لقد رأينا التاريخ والمؤرخين يتحدثون كثيرًا عن « ذهب المعز » الذى يستعصى على أكثر الناس مقاومة إغرائه . والحق أن الغنى والترف اللذين شهدتهما القاهرة فى عهود المعز والعزيز (٩٧٥ ـ ٩٩٦م ، ٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ) والحاكم (٩٩٦ ـ ١٠٢١م ، ٣٨٦ ـ ٤١١ هـ) ، والظاهر (١٠٢١ ـ ١٠٣٥م ، ٤١١ ـ ٤٢٧هـ) ، والفترة الأولى من حكم الخليفة المستنصر ، التى سبقت الشدة الشهيرة فى عصره ، الحق أن الغنى والترف اللذين عاشتهما هذه العاصمة الملوكية كانا من الوضوح والبروز بحيث استرعيا أنظار المؤرخين ، شيعة كانوا أم سنيين ، وجميع الرحالة والزوار الذين نزلوا مصر فى ذلك العصر ، موالين للفاطميين كانوا أم معادين . بل إن مرور ألف عام على هذه الحقبة التاريخية بما حملت من أحداث وتطورات لم تستطع أن تخفى عن أنظارنا المعاصرة أمارات الغنى والترف اللذين عاشتهما القاهرة فى ذلك الحين .

وإذا كان المؤرخ السلفى « ابن كثير » ، يرى أن الخلفاء الفاطميين كانوا جبابرة وظلمة ، فإنه لا ينسى أن يذكر لنا أنهم كانوا « أغنى الخلفاء وأكثرهم مالاً» [١] . ولم

(١) ابن كثير (البداية والنهاية فى التاريخ) : جـ ١٢ ، ص ٢٦٧ . ط القاهرة .

يكن هذا الغنى الذى تحلى به الخلفاء الفاطميون ظاهرة ملكية خاصة بهم ، لأن الهدايا والخلع والجود والكرم الذى كانوا يمارسونه ، وفق العادات العربية الأصيلة والتقاليد الملكية ، قد كان يخلق حول قصور هؤلاء الخلفاء طبقة اجتماعية غنية ، وفئات كثيرة تمارس حياة الترف والبذخ ، وترفل فى حلل النعيم الذى أفاضه الفاطميون على هذه الفئات .

ولقد أخذت مدينة القاهرة فى الاتساع ، حتى تجاوزت السور والأبواب التى أقامها من حولها جوهر الصقلى عندما بناها ، وأخذت فى الاقتراب والتداخل مع العاصمة القديمة « مصر » ، التى ظلت تحتفظ بدواوين الحكم ومقار الموظفين ، على حين كانت القاهرة ضاحية ملكية يسكنها الفاطميون . ولقد كان اتساع القاهرة وتداخلها مع « مصر » مسايرين ومصاحبين ، بل ومعبرين ، عن ذلك الاندماج الذى أخذ فى التزايد والعمق والاتساع بين السلطة الشيعية الجديدة والعنصر الأصلى الذى يسكن هذه البلاد .

وعندما زار الرحالة الفارسى ناصرى خسرو (المتوفى ـ سنة ١٠٦١م ٤٥٣هـ) القاهرة ، ومكث فيها ثلاث سنوات (١٠٤٧ ـ ١٠٥٠م) ، سجل لنا صورة رائعة لذلك الغنى والترف اللذين عاشتهما البلاد قبل حدوث الشدة المستنصرية سنة ١٠٦٦م .

● فهو يحدثنا عن الحوانيت التى كانت القاهرة تضمها ، والتى كان عددها يزيد عن العشرين ألف حانوت ، مملوكة جميعها للخليفة الفاطمى ، وكيف كانت هذه الحوانيت تؤجر للناس ، وكيف كان إيجار الحانوت منها يصل أحيانًا إلى عشرة دنانير فى الشهر الواحد .

● كما يحدثنا عن المنازل التى كان الخليفة يملكها فى القاهرة و « مصر » والتى بلغت عدتها نحوًا من ثمانية آلاف منزل ، يؤجرها للناس ، وكيف ارتفعت المنازل فى « مصر » حتى بلغ عدد طوابق بعضها أربعة عشر طابقًا ، ثم كيف بلغ تعداد سكان العاصمة نصف ميلون من الأنفس ، وكيف بلغت مساحة « مصر »

وحدها ، كما يقول الرحالة ابن حوقل ، صاحب (المسالك والممالك) والمتوفى سنة ٩٨١م ـ (سنة ٣٧١ هـ) ثلث مساحة بغداد ، وكيف اتسعت المنازل فيها حتى وسع بعضها مائتى ساكن ، وكيف أُقيمت فى أنحائها الحدائق والمتنزهات ، وكيف تحولت بعض أسطح قصور الخليفة وما زرع عليها من أشجار إلى متنزهات على درجة عظمى من الجمال .

● كما يحدثنا خسرو عن تعداد الجمال التى خصصت فى القاهرة لحمل مياه الشرب إلى سكان الشوارع غير الضيقة ، وكيف بلغ تعدادها ٥٢,٠٠٠ جمل ، وذلك غير الرجال الذين يحملون القرب المملوءة بالماء على ظهورهم إلى المنازل الواقعة فى الحارات الضيقة ، التى لا تستطيع الجمال أن تصل إليها .

● وكيف بلغ قصر الخليفة ، بل قصوره ، درجة من العظم والضخامة أصبحت معها أشبه بالمدينة عندما ترى من قرب ، وأشبه بالجبل عندما ترى من بعيد ! ، وكيف ضمت هذه القصور أكثر من ثلاثين ألف رجل وامرأة ، بينهم عدد غير محدود من الجوارى ، واثنا عشر ألف خادم مأجور . وكيف بلغ تعداد حرس هذا القصر فى كل ليلة ألف رجل ، نصفهم من المشاة ونصفهم من الفرسان .

● وكيف بلغ الأمن والاطمئنان بالناس فى هذه العاصمة حدًّا جعل الصيارفة والتجار ، بمن فيهم تجار الجواهر ، يتركون أبواب حوانيتهم ومتاجرهم مفتوحة ، بعد إسدال الستائر عليها عندما يذهبون إلى الصلاة أو إلى قضاء ما يحتاجون إليه .

● وكيف بلغت الثروة ، التى امتلكتها البلاد ، والتى فاضت عليها حدًّا جعل ناصرى خسرو يقول : إننى « لم أستطع حصر ثروتها ولا قدرها ، ولم يسبق لى رؤية تلك النعمة فى بلد آخر » [1].

---

(١) راجع فى ذلك عبد الرحمن زكى (القاهرة وتاريخها وآثارها) : ص ٣٤ ـ ٤٣ ، ط. القاهرة سنة ١٩٦٦م. والحاكم بأمر الله : ص ١٢٥ ، ١٢٧ . وتاريخ العرب : جـ٣ ، ص ٧٤١ . وسيرة القاهرة : ص ١٠٥ .

فـإذا ما أردنـا أن نقدم نمـوذجًا للغنـى ، والتقدم اللـذين شهـدتهما مصر فى الصنـاعة على عهـد الفـاطميين ، وأن نذكـر بعـض عناويـن هـذه الصفحة مـن صفحات ثروتها ورفـاهيتها ، فإننا نستطيع أن نشير إلى « حوض صنـاعة السفن » حـربية كـانت أو تجاريـة ، الـذى بناه الخليفـة المعـز على النيل بـالمكان المسمـى «بالمقس» ، والذى كان يقع بالقرب مـن الأزبكية الآن ، والذى ظل للقاهرة ميناء وترسـانة سفن إلى أن تغير مجرى النيـل ، وقام فى ذلـك المكان حى بـولاق . ولقد أبصر ناصرى خسرو بنفســه فى سنة ١٠٤٧م بعض السفـن المصرية راسيـة فى هذا الميناء ، وقـال : إن طول الواحـدة منها كان ٢٧٥ قـدمًا ، أمـا عرضها فلقـد كان ١١٠ أقدام[١] !!

وصنـاعة النسيـج التـى اشتهرت بها مصر منـذ أقـدم العصـور ، والتى جـاء الفاطميون فوجدوها مزدهرة ومنتعشـة ، فإذا بترفهم وفخامة حياتهم ، وإذا بكثرة أعيادهـم ومناسبـاتهم واحتفالاتهم ، وإذا بتعـدد وتعقد مـراسيمهم ، تتيـح لهذه الصناعة المزيد من الازدهار ، وتفتح أمام العاملين فيها الكثير من مجالات الإبداع والتجويد ، حتـى أصبحت فى البلاد وقتها العديد مـن الحواضر التى تشتهر بهذه الصناعـة ، مثل « تنيس » و « الإسكندريـة » و « دمياط » و « دبيق» و « الفـرما » و«الفسطاط » التـى كانـت تصنع قماشًا راقيًـا نسبه إليها الأوربيـون عندمـا أسموه «الفستيانى »[٢].

وصناعة الخزف الذى ذكر ناصرى حسرو أنه كـان لطيفًا وشفافًا ، حتى بلغت شفافيته درجة حاكت الزجاج ، إذ كان فى ميسور الإنسان أن يرى من باطن الإناء الخزفى اليد الموضوعة خلفه[٣] !

* * *

---

(١) سيرة القاهرة : ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) تاريخ العرب : جـ ٣ ، ص ٧٤٨ .

(٣) المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ٧٤٨ .

ولقد أخـذت المنشآت والمسـاجد والمتنـزهات والآثـار العظيمة للغنـى والترف الفاطمـى فى الانتشار فى مختلف أرجاء العـاصمة ، كما أخذت عمليات تجديـدها وصيانتها والزيادة فيها تأخذ مكانها اللائق فى نشاط الخلفاء الفاطميين و إنجازات الوزراء والمدبرين لأمور السلطة والسلطان . ويكفى أن نعلم أن فترة حكـم الخليفة العزيز التـى لم تزذ على واحد وعشرين عامًـا قد شهدت التجديد والـزيادة فى هذه المنشآت :

١ ـ قصر الذهب بالقاهرة .

٢ ـ جامع القاهرة .

٣ ـ بستان سردوس .

٤ ـ الفوارة بالجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) .

٥ ـ القصور بضاحية عين شمس .

٦ ـ المصلى الجديد بالقاهرة .

٧ ـ حصن الرسيين .

٨ ـ المنظرة على الخليج .

٩ ـ قنطرة بنى وائل .

١١ ـ حمامات القاهرة .

١٢ ـ دار صناعة السفن بالمقس .

١٣ ـ المراكب والسفن .

١٤ ـ دار الفطرة [١] .

---

(١) اتعاظ الحنفا : ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

كما أدت عناية الفاطميين بتاريخ آبائهم وأجدادهم ، حرصًا منهم على تأكيد الانتساب إلى على بن أبى طالب وزوجه فاطمة بنت الرسول ، إلى إعطاء المزيد من أسباب الترف والبذخ للأضرحة ، وإسباغ كل ما هو فنى وجميل على المزارات الخاصة بالأولياء والصالحين ، وما يحيط بهذه المزارات من مساجد ودور للعبادة ، حتى تحولت « الجبانة المعروفة بالقرافة » إلى « إحدى عجائب الدنيا ، لما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء . . وأهل البيت . . والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء » . وإذا كان الفاطميون قد جاءوا إلى القاهرة برفات خلفائهم الذين ماتوا فى بلاد المغرب قبل فتحهم لمصر ، واتخذوا من بناء مسجد الحسين وقصة وجود رأسه فى هذا المسجد سببًا لمنافسة بغداد العباسيين ، فإنهم قد ساروا شوطًا أبعد فى هذا المضمار ، حتى رأيناهم يزعمون أن فى الجبانة التى أشرفوا على تعميرها وزخرفتها وتوشيتها « قبر ابن النبى صالح ، وقبر روبيل بن يعقوب بن إسحق . . وقبر آسية امرأة فرعون . . ومشاهد أهل البيت . . أربعة عشر من الرجال وخمس من النساء ، « وأقيم » على كل واحد منها بناء حفيل ، فهى بأسرها روضات بديعة الإتقان عجيبة البنيان ، قد وكل بها قَوَمَةٌ يسكنونها ويحفظونها ، ومنظرها منظر عجيب ، والجرايات متصلة لقوامها فى كل شهرا » [(1)] . فإذا كان هذا الوصف الذى قدم بعض الإشارات إلى ما حفلت به هذه « القرافة » التى أصبحت « إحدى عجائب الدنيا » قد كتب عنها عندما زارها ابن جبير على عهد صلاح الدين الأيوبى ، وبعد أن دالت دولة الفاطميين ، وأهملت ، بنسب متفاوتة ، الكثير من منشآتهم وآثارهم ، استطعنا أن نقدر مدى الروعة التى كانت عليها هذه الأضرحة والمزارات فى ظل خلافة بذلت فى سبيل هؤلاء الأموات الشىء الكثير !

بل إن التاريخ ليذكر لنا أن هذا الاهتمام الزائد من قبل الفاطميين بهذه المزارات والمساجد ، قد أتاح فرصة ذهبية للفن العربى الإسلامى كى يتخطى بعض الأسوار التى وضعها أمامه المفكرون السلفيون والمحافظون . ففى مسجد القرافة الذى كان

---

(١) ابن جبير (تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار) « رحلة ابن جبير » : ص ٤٩ ط . دار التحرير . القاهرة سنة ١٩٦٨م .

آية من آيـات الفن الفاطمى ، نجـد لوحة ليوسـف الصديق بن يعقـوب وهو ملقى فى الجب يستغيث ، رسمها له الفنان الفاطمى « القطامى » الذى كان مقربًا إلى الـوزيـر « اليازورى » فى عهـد المستنصر ، مثلـه مثـل الفنـانين « ابن عـزيـز » و«القاصر» الذين استفادت هذه المزارات بإنتاجهم الفنى إلى حد كبير [1].

وعلى الذيـن لا يستطيعون أن يتصوروا ، أو أن يستسيغـوا تلك العنايـة الزائدة التى بذلها الفاطميون بهذه المزارات والمقابر ، أن يعلمـوا أن ما تبقى لنا من عادات خاصـة ببناء « الأحـواش » و « المنازل » على المقابـر ومن حـولها ، وكذلـك تنظيم الزيـارات لهذه المقابـر فى هذه المناسبـات ، إنما تعود فى معظمهـا إلى ذلك الميراث الذى خلفه لنا الفاطميون . فإذا كان ما نشهده اليوم هو حصيلة ما تبقى بعد ألف عام ، فكم كان الرصيد فى هذا الميدان قبل مرور هذه القرون العشرة ؟ !

وإذا علمنا أنه عندمـا ماتت زوجة الخليفة العزيز وأُم ولـده فى شهر شوال سنة ٣٨٥ هـــ (سنة ٩٩٥م) . أقامـت ابنتها على قبرها عـزاء استمر شهرًا كـاملاً ، وأقامت على القبر طـوال هذا الشهر ، وكان والدهـا أمير المؤمنين يأتى إلى القبر فى كل يوم ، وشارك الناسُ الخليفةَ وابنته فى حـزنهما بتوزيع أصناف الأطعمة والحلوى فى كل ليلة ، كما رثاها الشعراء ، ونـالوا الجوائز على قصائدهم فيها ، تلك الجوائز التى وزعها عليهـم العزيز والتى بلغـت ألفى دينار [2] ـ إذا علمنا ذلـك ، أدركنا ذلـك القدر مـن الترف والغنى والبـذخ الذى أفـاضــه الحكم الفـاطمى على هــذا الجانب من جوانب العمران القاهرى فى ذلك الزمان . .

* * *

كما كانت المناسبات الكثيرة والأعياد المتعددة التى أخذ الفاطميون فى الاحتفال

---

(١) سيرة القاهرة : ص ١٣٠ ، ١٣١ .

(٢) اتعاظ الحنفا : ص ٢٨٩ .

بها ، والتى تحولت إلى أعياد قـومية ودينية لمصر ، وذلك إلى جانب الأعيـاد القومية التى كانت تحتفل بها مصر منذ الفراعنة ، وأيضًا الأعياد القبطية والإسلامية السنية - كانت هذه الأعياد والمناسبات من الكثـرة بحيث يخيل للإنسان أنه قد كانت وراء كثرتها ، ومراسيمها ، والاهتمام الرسمى بها ، خطة فاطمية لإغراق الناس و إلهائهم من جانب ، واتخاذها وسيلة لتطويع الجماهير للتعـاليم الشيعية من جانب آخر ، كما كانت كذلك مناسبات للمواكب الـرسمية والاستعراضات التى تفيض بألوان من البـذخ والغنى والترف على عـاصمة البـلاد . ويكفى أن نعلـم أن أعياد مصر ومناسباتها فى العهد الفاطمى قد بلغت سنويًّا ما يزيد على الثلاثين منها :

١ - رأس السنة الهجرية .

٢ - المولد النبوى .

٣ - أول رجب .

٤ - نصف رجب .

٥ - أول شعبان .

٦ - نصف شعبان .

٧ - أول رمضان .

٨ - عيد الفطر .

٩ - عيد النحر .

١٠ - مولد على بن أبى طالب .

١١ - مولد الحسن .

١٢ - مولد الحسين .

١٣ - مولد فاطمة بنت الرسول .

١٤ ـ يوم عاشوراء ، وهو يوم ذكرى استشهاد الحسين فى كربلاء سنة ٦١ هـ (سنة ٦٨٠م).

١٥ ـ عيد فتح الخليج .

١٦ ـ عيد النيروز.

١٧ ـ عيد الشهيد .

١٨ ـ عيد النصر (١٦ من محرم) ، وهو الذى استنه الخليفة الحافظ لدين الله بمناسبة ظهوره من محبسه .

١٩ ـ المواليد الستة .

٢٠ ـ ليالى الوقود الأربع .

٢١ ـ شهر رمضان بأكمله ، وفيه كانت تغلق قاعات الخمارين بمصر والقاهرة .

٢٢ ـ قافلة الحج .

٢٣ ـ عيد الغدير (١٨ من ذى الحجة) ـ نسبة إلى « غدير خم » ، ماء بين مكة والمدينة ، يقال إن الرسول آخى عليه علىّ بن أبى طالب ، أثناء عودتهم من حجة الوداع سنة ١٠هـ ، وقال يومها : « علىّ منى كهارون من موسى . اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله» . ويقال إن أول من احتفل به « معز الدولة بن بويه » بالعراق ، سنة ٣٥٢ هـ (سنة ٩٦٣ م) . وكان أول احتفال للفاطميين به فى مصر ، سنة ٣٦٢ هـ (سنة ٩٧٢ م) .

٢٤ ـ كسوة الشتاء والصيف ، وكانت توزع على أهل الدولة وذويهم .

٢٥ ـ ميلاد المسيح ، فى ٢٩ كيهك .

٢٦ ـ الغطاس ، فى ١١ طوبة .

٢٧ ـ خميس العهد ، وهو عيد مسيحى ، قبل الفصح بثلاثة أيام .

٢٨ ـ السبت والثلاثاء من كل أسبوع ، وكان الخليفة يركب فيهما للنزهة .

٢٩ ـ صلاة الجمعة بالأزهر ثلاث مرات من كل عام يحضرها الخليفة .

٣٠ ـ عيد الصليب ، فى ١١ توت [١].

أضف إلى ذلك تلك المناسبات ، التى كانت الدولة تستعرض فيها مظاهر قوتها وعظمتها عندما يزورها زائر أجنبى مثلاً ، أو يأتى إلى عاصمتها أحد الولاة الذين تحرص على إدخال الرعب إلى قلوبهم ، حتى لا تحدثه نفسه بشق عصا الطاعة عليها ، فتقيم أمامه عرضًا عسكريًّا يحضره الخليفة ، كما نصنع نحن الآن فى عصرنا الحديث . والمقريزى ، يحكى لنا كيف ركب الخليفة العزيز فى ١٩ من شعبان سنة ٣٨٣ هـ ـ (سنة ٩٩٣م) ، « فوقف على فرسه تحت شراع نصب له ، ومرت العساكر بالخيل والجواشن والخوذ ، فمروا قائدًا قائدًا ، كل واحد بعسكره فى حجابه وشاكريته [٢] وبنوده ، وكانوا مائة وستين قائدًا ، فيهم من عسكره ثلاثة آلاف إلى ألفين ـ (أى قوات رمزية من الجيش) ـ وكان الغرض بهذا العرض أن يرى رسول منصور بن زيرى العساكر » [٣].

كما كانت للخلفاء رحلات للصيد ، يخرجون فيها إلى الخلاء فى مواكب ذات طابع خاص . والمقريزى ، يحكى لنا كيف خرج الخليفة العزيز فى المحرم سنة ٣٨٣ هـ ـ (سنة ٩٩٣م) إلى الجيزة فى رحلة من رحلات الصيد ، وكيف اصطاد سبعًا ، وعاد موكبه إلى القاهرة والسبع محمول على بغل بين يدى أمير المؤمنين [٤]!

* * *

---

(١) خطط المقريزى : جـ١ ، ص ٤٩٠ ـ ٤٩٥ ، واتعاظ الحنفا : ص ١٤٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٦ . والحاكم بأمر الله : ص ٣٥١ .

(٢) الشاكرى : الساعى ، أو الرسول ، أو السيف العريض المنحنى ذو الحدين .

(٣) اتعاظ الحنفا : ص ٢٧٩ .

(٤) المصدر السابق : ص ٢٧٧ .

فإذا ما شئنـا أن نلقى نظرة سريعة وخـاطفة على حجم بعض الثـروات الفردية الخاصة ، التى كانت تتجمع لدى بعـض الأفراد ذوى الصلات الوثيقة بالخلفاء ، والذين يتولون تصريف شئون البلاد ، راعتنا ضخامة أحجام هذه الثروات ، التى تجسد لنا ذلك اللـون من الغنى والترف والبذخ ، الذى كان عليـه هذا الجانب من جوانب حياة مصر فى ذلك الحين .

● فعندما يختطف الموت إحدى بنات المعز لدين الله ، يجدون فى ثروتها الخاصة من بين ما يجدون ٢,٧٠٠,٠٠٠ دينار !!

● وعنـدما تموت بنـت أخرى مـن بنـاته ، يجدون لـديها ، ضمن مـا يجدون ، حجرة خاصة بـالمجوهرات ، بها خمس حقائب من الزمـرد، وثلاثة آلاف صندوق مملوءة بالفضة ، حتى إذا ما أرادوا ختم ثـروتها هذه بالشمع ، احتاجوا إلى أربعين رطلاً من الشـمع فى عملية الختم هذه [1] !!

● وعندما يتخلص الحاكم بأمر الله ، عن طـريق القتل ، من « برجوان » زعيم الجند الصقـالبة ، الـذى كان مستبدًا بـالسلطة والسلطان ، عنـدما كـان الحاكم صغيرًا فى السن ، يجدون فى تـركته من الطرائف والطـرف والأموال أشياء تـربو على الوصـف ، من بينها ألف سروال دبيقـى ، وعدد ضخم مـن الآلات الموسيقية ، وكميات هائلة من التحف والأشياء النادرة [2].

● وعندما يولد ليعقوب بن كلس ، وزيـر العزيز ، ولد ذكر فى سنة ٣٦٩ هـ (سنة ٩٧٩م) ، يـرسل إليـه العزيـز بهدية تحوى ضمـن ما تحوى : مهـدين مـن خشب الصندل المرصع ، وثلثمائة ثوب ، وعشرة آلاف دينار عزيزية ، وخمسة عشر فرسًـا مسرجة ملجمـة ، ضمنها لجامـان من الـذهب الخالـص ، وقدر كبير مـن الطيب ، حتى لقد قدرت هذه الهدية بمائة ألف دينار [3].

---

(١) سيرة القاهرة : ص ١٣٠ .

(٢) شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى ، المعروف بأبى شـامة (كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية) : جـ ١ ص ٤٩٤ تحقيق د. محمد حلمى محمد أحمد ، ط . القاهرة ، سنة ١٩٦٢م.

(٣) اتعاظ الحنفا : ص ٢٥٢ .

● وعندما يغضب العزيز على وزيره هذا ، فيعتقله فى ٣ من شوال سنة ٣٧٣هـ ـ (سنة ٩٨٣م) ، لمدة شهرين ، تتكشف الثروة النقدية السائلة التى وجدت بداره عن ١٠٠,٠٠٠ دينار ، كما يتكشف الأمر عن أن ابن كلس هذا كانت لديه أوراق تحصى العطايا التى يخرجها لمريديه ، والتى بلغت ألف دينار شهريا ! ولا عجب ، فلقد كان إقطاعه فى السنة ٣٠٠,٠٠٠ دينار ، وذلك غير المبانى والرباع ، وغير ثروته الخاصة [١]!

● فإذا ما مات يعقوب بن كلس هذا فى ٥ من ذى الحجة سنة ٣٨٠ هـ ـ (سنة ٩٩٠ م) نجده يكفن فى خمسين ثوبًا ما بين ومش ومثقل ، (منسوج بالذهب) ، وشرب دبيقى مذهب ، وجفت كافور ، وقاورتين من مسك ، وخمسين منًا ماء ورد فكان ما كفن به وخيط به عشرة آلاف دينار [٢]!

● فإذا ما عقد الخليفة العزيز قرانه على امرأة ليتخذها له زوجة ، نجد أن صداقها قد بلغ مائتى ألف دينار ، كما نجد أن أجر الكاتب لعقد الزواج قد بلغ ألف دينار ، وذلك غير الخلع والهدايا التى أعطيت للقاضى والشهود ، الذين حملوا على البغال ، فطافوا المدينة بالطبول والبوقات !

ويومها ، أخذ العزيز فى تلقى الهدايا المناسبة ، لهذه المناسبة ! ولقد جاءته فى هدية متولى « برقة » ـ أى واليها ـ أربعون فرسًا بتجافيف [٣] ، وأربعون بغلاً بسروجها ولجمها ، وستة عشر حملاً من المال ، ومائة بغلة ، وأربعمائة جمل [٤]!!

وهى نماذج قليلة ، ولكنها معبرة عن قمة الغنى والترف والبذخ الذى كان طابع جانب من جوانب مجتمع مصر فى ذلك الحين ، وهو جانب ارتبط بالخلافة الفاطمية فى ذهن الكثير من المؤرخين ، كما أنه قد ترك طابعه وبصماته على معالم مصر وعمارتها ومعمارها وفنها خلال هذه الحقبة من حقب التاريخ .

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٦٢ ، ٢٦٩ . (٢) المصدر السابق : ص ٢٦٨ .

(٣) هى ما يجلل به الفرس ، ويلبسه من سلاح وأدوات تقيه الجراح .

(٤) المصدر السابق : ص ٢٥٢ .

الفصل الرابع

الحياة الفكرية في مصر الفاطمية

● دراسة فى الطابع العربى لحياة مصر الفكرية يومئذ، ودلالته على نضج عملية التعريب فيها . . والمؤسسات الفكرية والعلمية والتعليمية التى قامت بها .

الحياة الفكرية

هناك زعم يسوقه البعض ، مدعيًا فيه ذبول الحركة الفكرية والأدبية فى مصر على عهد الفاطميين ، وانعزال القاهرة « عن تقدم الدراسات الإسلامية فى القرنين ، الحادى عشر والثانى عشر (الميلاديين) » ، ثم ينتهى هذا الزعم إلى القطع بأنه «قلما ظهر هناك قادة فى محيط الفكر أو الأدب العربى تحت الحكم الفاطمى » [1]. ونحن لا نريد هنا البحث عن مدى الصدق ومدى الزيف فى هذا الادعاء ، لأننا نرفضه من أساسه ، ونرى فيه نظرة سطحية أثمرتها عوامل عدة ، كان فى مقدمتها :

١ ـ ذلك التحيز الذى نجده فى كتب التاريخ ، التى كتبها المؤرخون السلفيون « السنيون » عن مصر والقاهرة فى زمن الفاطميين . وهو موقف يجب أن يبرأ منه الباحث المعاصر ، لأنه لا ناقة له ولا جمل فى هذه الخلافات التى فرقت العالم الإسلامى ، فكريًّا وسياسيًّا ، حينًا من الدهر ، والتى زالت ، منذ قرون ، بواعثها وأسبابها ، ولم يعد مستساغًا أن نظل فى القرن الخامس عشر الهجرى أسرى لحزازات ، ولدت أسبابها ثم ماتت فى زمنى على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان . وهذا الموقف المتحيز، الذى يغمط الحياة الفكرية والأدبية المصرية على عهد الفاطميين حقها من الإنصاف والتقدير ، هو الذى أوحى ، ولا يزال يوحى

(١) سيرة القاهرة : ص ١١٨ .

لبعض الباحثين بمثل هذه المزاعم التى لا ترقى إلى مصاف الحقائق ، ولا تثبت للبحث والتمحيص .

٢ ـ إن عملية التأريخ للحياة الفكرية والأدبية ، فى حضارتنا العربية الإسلامية ، قد أُصيبت بداء الاهتمام الأكثر من اللازم بمجتمع العاصمة المركزية التى كانت مقرًّا للخلافة ، وعلى الأخص فى بغداد ، وبداء الإهمال الأكثر من اللازم لمجتمعات المدن الأخرى ، برغم ما حفلت به من نشاطات فكرية عَبْرَ الكثير من العصور . وعلى الرغم من أن القاهرة كانت ـ على عصر الفاطميين ـ إنما تمثل بالنسبة للعالم العربى عاصمة الخلافة الأقوى والأوسع انتشارًا ، فإن انهيار هذه الخلافة على يد سلطة سلفية « سنية » محافظة ، هى سلطة الدولة الأيوبية ، التى كان ولاؤها للخلافة العباسية فى بغداد ، وكذلك كتابة تاريخ هذه الفترة من قبل مؤرخين سلفيين « سنيين » ، قد جعلهم لا يعترفون للفاطميين بمرتبة الخلافة وإمارة المؤمنين ، وإنما رأوا فيهم « أدعياء » مغتصبين للسلطة . بل لقد بلغت الجرأة ببلاط الخلافة العباسية ببغداد إلى الحد الذى جعل الخليفة القادر بالله يجمع فقهاء بلاطه فى سنة ٤٠٢ هـ (سنة ١٠١١ م) ليصدروا فتوى يطعنون فيها فى انتساب الفاطميين إلى أهل بيت الرسول ! فإذا ما جاءت سنة ٤٤٤ هـ (سنة ١٠٥٢ م) ، صدرت حول هذا الموضوع ببغداد وثيقة ثانية ، زيد فيها أن نسب الفاطميين لا يعود إلى على بن أبى طالب ، وإنما إلى اليهود أو المجوس [١] ! ومن ثم ، فلقد عوملت مصر عند تأريخ الحركة الفكرية والأدبية فى حضارتنا العربية الإسلامية معاملة الإقليم ، وعوملت القاهرة عاصمة الإقليم ، التى تغلب عليها متغلب « دعى » حينًا من الدهر ، ثم عادت تخطب على منابرها للخليفة الشرعى المتربع على عرش بغداد !

٣ ـ إن الآثار التى سجلت فيها الحركة الفكرية المصرية ثمار هذه الفترة ،

---

(١) الحاكم بأمر الله : ص ٤٧ ـ ٧٥ .

والكتب والمجلدات التى كـان بـإمكانها أن تصبـح الآن ألسنة نـاطقـة بالأنشطـة الفكرية لتلك الحقبة الزمنية ، قد أصابها التلف والسلب والنهب والضياع مرتين . أولاهما ، عندما حدثت الشدة المستنصريـة ، التى بدأت بمجاعة سنة ١٠٦٦م ـ (سنة ٤٥٩ هـ) . وثانيتهما ، عندما انتهى العصر الفـاطمى على يد صلاح الدين الأيوبى ، وعهد بمكتبة القصر الفاطمى التى « كـانت خزائنها مشتملة على قريب مائة وعشرين ألف مجلدة » ، عهد بها « للأمير بهاء الـدين قراقوش . . وهو تركى لا خبرة له بالكتب ، ولا دربة له بأسفار الأدب » ، فأصبحت « كالميراث مع أبناء الأيتـام ، يتصرف فيها بشره الانتهـاب والالتهـام » [١] ، ممـا أدى إلى ضياع هـذا التراث ، ذلك الضيـاع الذى أحـدث العديد مـن الثغرات فى العـديد مـن الأبنية الفكريـة فى حضارتنـا العربية الإسـلامية ، كما خلـق وهمًا شاع بين الكثيريـن عن ذبول الحياة الفكرية والأدبية فى مصر على عهد الفاطميين .

وإذا كان حديثنا هذا عن الحياة الفكرية فى مصر الفاطمية ، هو إثباتا لوجودها وأهميتها بأدلة السلب والنفى لحجج الخصوم ، فـإن لدينا العديد من أدلة الإيجاب التى نستطيع بواسطتهـا أن نبرز وجهًا ظل مشرقًا ردحًا طويـلاً من الزمن ، ويجب أن يعود له إشراقه فى الدراسات التى تقدم عن حياتها فى ذلك الحين .

العلماء والأدباء :

ومن بين هذه الأدلة التى نسوقها لإثبات دعـوانا هذه ، أسماء تلك الكوكبة من علماء ذلك العصر ومفكـريه وأدبائه وشعرائه ، والـذين يكفى الاطلاع على قـائمة بأسمائهم لإقامة الدليل على غنى الحياة الفكرية لمصر يومئذ بالنوابغ والأفذاذ . وإذا كان من المتعذر علينا أن نورد فى هـذا الإطار كل الأسماء التى لمعت فى ذلك العصر بميدان الفكـر والثقافـة ، فإننا نقـدم فقط بعـض هذه الأسماء ، كنمـوذج ودليل جيدى البرهنة على صدق ما نقول ، وذلك مثل أسماء :

---

(١) كتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ .

- عز الملك المسبحي : واسمه محمد بن عبد الله بن أحمد الحراني (٣٦٦ - ٤٢٠ هـ ، سنة ٩٧٦ - سنة ١٠٢٩ م) ، وهو مؤرخ تولى ديوان الترتيب منذ سنة ٣٩٨ هـ - (سنة ١٠٠٧ م) .

- أبو الحسن على بن يونس : (المتوفى سنة ٣٩٩ هـ - سنة ١٠٠٩ م) ، الفلكى والمنجم والأديب والشاعر ، والذى ألف كتاب « الزيج الكبير » للحاكم بأمر الله خصيصًا .

- أبو على الحسن بن الحسن بن الهيثم : (المتوفى سنة ٤٣٠ هـ - سنة ١٠٣٨ م) واضع علم البصريات .

- الحسن بن زولاق : (٣٠٦ - ٣٨٧ هـ ، ٩١٩ - ٩٩٧ م) ، المؤرخ الذى عاصر الدولتين الإخشيدية والفاطمية ، والذى كتب سيرة المعز وغيرها من الكتب التى اقتبس منها المتأخرون .

- أبو الحسن على بن محمد السابشتى : (المتوفى سنة ٣٩٠ هـ - سنة ٩٩٩ م) ، صاحب كتاب الديارات .

- أبو عبد الله اليمنى : (المتوفى سنة ٤٠٠ هـ - سنة ١٠٠٩ م) المؤرخ ، صاحب تاريخ النحاة ، وسيرة جوهر القائد .

- منصور بن مقشر : الطبيب المسيحى ، الذى عاصر العزيز والحاكم بأمر الله .

- محمد بن أحمد بن سعيد : الطبيب .

- أبو يعقوب بن نسطاس : الطبيب .

- محمد بن القاسم بن عاصم : شاعر الحاكم بأمر الله وجليسه .

- أبو عبد الله محمد بن سلام بن جعفر القضاعى : (المولود فى أواخر القرن الرابع ، والمتوفى سنة ٤٥٤ هـ - سنة ١٠٦٢ م) وهو مؤرخ ، وفقيه شافعى المذهب ، ومحدث ، تولى القضاء فى عهد المستنصر ، واشتهر بكتابه عن خطط مصر وآثارها .

- أبو الحسن على بن إبراهيم بن سعيد الحوفى : (المتوفى سنة ٤٣٠ هـ - سنة ١٠٣٨م) ، النحوى ، اللغوى ، الأديب .
- أبو العباس أحمد بن هاشم المصرى : (المتوفى سنة ٤٤٥ هـ - سنة ١٠٥٣م) المحدث والعالم بالقراءات .
- أبو الحسن طاهر بن أحمد المصرى : المعروف بابن بابشاذ ، (والمتوفى سنة ٤٦٩هـ - ١٠٧٦ م) .
- أبو الحسن الرشيد بن الزبير : (المتوفى سنة ٥٦٣ هـ - سنة ١١٦٧م) ، الشاعر، المنطقى ، المهندس ، الرياضى .
- الحافظ أبو طاهر السلفى : (المتوفى سنة ٥٧٦ هـ - سنة ١١٨٠م) بعد عمر زاد عن مائة سنة ، المحدث ، الناقد ، الراوية ، والذى استقر بالإسكندرية منذ سنة ٥١١ هـ - (سنة ١١١٧م) .
- هاشم بن العباس المصرى : الشاعر الذى تميز بتصوير الطبيعة والإقليم .
- ظافر بن القاسم الجذاعى الإسكندرى : (المتوفى سنة ٥٢٩ هـ - سنة ١١٣٤م)، الشاعر .
- أبو الغمر محمد بن على الهاشمى : (المتوفى سنة ٥٤٤ هـ - سنة ١١٤٩م) ، الشاعر .
- محمود بن إسماعيل أبو الفتح الدمياطى : (المتوفى سنة ٥٥١ هـ - سنة ١١٥٦م)، الشاعر ، وكاتب الإنشاء فى عهد القاضى الفاضل .
- الصالح طلائع بن رزيك : (المتوفى سنة ٥٥٦ هـ - سنة ١١٦٠م) ، الشاعر الحماسى النزعة ، والفقيه المصنف فى فقه الشيعة ، والذى تولى الوزارة ولقب «بالملك الصالح» .
- أبو المعالى عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبى السعدى التميمى :

الشاعر، الملقب بالجليس ، لمجالسته الخليفة العاضد ، (المتوفى سنة ٥٦١ هـ - سنة ١١٦٥م) .

- القاضى موفق الدين يوسف بن محمد المصرى ، المعروف بابن الخلال : (المتوفى سنة ٥٦٦ هـ سنة ١١٧٠م) الشاعر الذى تولى ديوان الإنشاء زمن العاضد ، وتعلم على يديه القاضى الفاضل .
- أبو الفتوح نصر الدين قلاقس الإسكندرى : (٥٣٢ هـ - سنة ٥٦٧ هـ ، سنة ١١٣٧م - سنة ١١٧١م) ، الشاعر.
- ابن المأمون البطائحى : الكاتب ، المؤرخ .
- ابن القيسرانى ، أبو محمد عبد السلام ، المعروف بابن الطوير المصرى : صاحب (نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين) الذى ينقل عنه المقريزى .
- أبو الفتوح الدمياطى : الأديب الناثر البليغ ، شيخ القاضى الفاضل .
- الوزير أبو القاسم على بن منجب ، الشهير بابن الصيرفى : (المتوفى سنة ٥١٢ هـ - سنة ١١٤٧م) ، الكاتب ، المؤرخ ، صاحب (الإشارة لمن نال الوزارة) وغيره من الكتب .
- أبو على عبد الرحيم بن على ، الشهير بالقاضى الفاضل : (المتوفى سنة ٥٩٦ هـ - سنة ١١٩٩م) ، كاتب الإنشاء على عهد العاضد وصلاح الدين .
- أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت : (المتوفى سنة ٥٢٨ هـ - سنة ١١٣٣م) ، الأديب ، الشاعر ، الذى وفد على مصر من الأندلس ، وألّف عن علماء مصر وأدبائها .
- أبو بكر محمد بن الطرطوشى : (المتوفى سنة ٥٢٠هـ - سنة ١١٢٦م) الكاتب السياسى الذى نوّه به ابن خلدون ، والذى وفد على مصر زمن الآمر بأحكام الله .
- أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكى : (المتوفى سنة ٣٩٩ هـ - سنة ١٠٠٨م) ، الشاعر ، الذى وفد على مصر .

- أبو الحسن على بن عبد الواحد البغدادى : (المتوفى سنة ٤١٢ هـ ـ سنة ١٠٢١م) ، الشاعر ، الذى وفد على مصر .
- أبو محمد عمارة بن أبى الحسن اليمنى : (المتوفى سنة ٥٦٩ هـ ـ سنة ١١٧٣م) ، الشاعر ، المؤرخ ، الفقيه الشافعى ، الذى وفد على مصر من اليمن سنة ٥٥٠ هـ ـ (سنة ١١٥٥م) .
- أبو كامل شجاع بن أسلم : (القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى) العالم فى الجبر .
- على بن رضوان : (٩٨٠ ـ ١٠٦١م ، سنة ٣٧٠ ـ ٤٥٣هـ) الطبيب .
- أوتيقيوس : بطريرك الإسكندرية (٩٣٩ م ـ سنة ٣٢٨ هـ) ، المؤرخ .
- الجوانى : المؤرخ .
- أبو صالح الأرمنى : المؤرخ .
- القاضى أبو الحسن على بن النعمان : (المتوفى سنة ٣٧٤ هـ ـ سنة ٩٨٤م) ، الفقيه .
- يعقوب بن كلس : المؤرخ ، والفقيه ، والوزير .
- القاضى الشريف أبو محمد عبد الله العثمانى الديباجى : (المتوفى بالإسكندرية سنة ٥٧٢ هـ ـ سنة ١١٧٦م)، الشاعر ، الناثر ، المحدث ، الراوية .
- الرشيد أحمد بن على : الشاعر.
- عمار بن على الموصلى : صاحب كتاب (المنتخب فى علاج العين) وهو من علماء عصر الحاكم بأمر الله .
- القاصر : الرسام على عهد وزير المستنصر اليازوردى .
- ابن عزيز : الرسام على عهد المستنصر .

● القطامى : الرسام على عهد المستنصر .

وهى كوكبة من الأسماء لطائفة من الأعلام الذين ازدانت بهم الحياة الفكرية والأدبية والثقافية فى العصر الفاطمى . فإذا ما كررنا ما سبق أن ذكرناه من أن هذه الأسماء إنما هى مجرد أمثلة فقط لا غير ، استطعنا أن ندرك القدر الكبير والجليل الذى كان لهذه القسمة من قسمات مجتمع مصر والقاهرة فى ذلك الحين .

الأزهـر :

وثانى الأدلة التى نسوقها على عمق وأصالة الحركة الفكرية والأدبية فى ذلك العصر ، هو قيام المؤسسات العلمية العملاقة التى شهدتها العاصمة يومئذ وبخاصة الأزهر ، كجامعة فكرية وثقافية .

فلقد بدأ كمسجد جامع للمدينة الجديدة ، بدأ جوهر الصقلى فى إنشائه فى العام التالى مباشرة للفتح ولبدء تأسيس القاهرة ، وبالتحديد فى ٣ من أبريل سنة ٩٧٠ م ـ (جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ) . وتم بناؤه وافتتح للصلاة بعد عامين فى ٢٤ من يونيو سنة ٩٧٢م ـ (رمضان سنة ٣٦١ هـ) [١].

وبعد أن حضر الخليفة المعز لدين الله إلى القاهرة ، بدأت بوادر أولية لاستخدام هذا المسجد الجامع فى أداء دور فكرى وعقائدى منسجم مع أيديولوجية الدولة الجديدة . فجلس به قاضى القضاة على بن النعمان فى شهر صفر سنة ٣٦٥ هـ ـ (سنة ٩٧٥م) ليملى على الدارسين والجمهور مختصرًا أعده والده فى فقه الشيعة ، سمى « بالاقتصار » . وحضر حلقات الدرس هذه جمع عظيم من الدارسين والجمهور [٢]. فإذا ما توفى على بن النعمان فى سنة ٣٧٤هـ ـ (سنة ٩٨٤م) ، واصل عملية التدريس هذه أخوه القاضى « محمد بن النعمان » المتوفى سنة ٣٨٩ هـ ـ (سنة ٩٩٨م) .

---

(١) سيرة القاهرة : ص ١٢١ والقاهرة : تاريخها وآثارها : ص ١٧ .

(٢) اتعاظ الحنفا : ص ٢٢٧ .

حتى إذا كان عهد الخليفة العزيز ، وتولى يعقوب بن كلس منصب الوزارة ، نجده يشير على مولاه أن يحول هذا المسجد إلى جامعة علمية وفكرية للعلوم العقلية والنقلية ، الدينية والدنيوية ، ولفكر الشيعة على وجه الخصوص . وأشرف ابن كلس على ترتيب كل ذلك ، فوظف فيه العلماء والقراء ، ورتب لهم الأموال والنفقات .

حتى إذا كان عام سنة ٩٨٨م ، وجدناه قد استوى جامعة مكتملة الأسس والمقومات و « أصبح قبلة للعلماء . . وللطلاب دون تمييز فى الجنس أو اللغة أو الطبقة »[١]. وأخذ يؤتى ثماره فى الحياة الفكرية فى ذلك التاريخ . وليس أدل على أهمية الدور الفكرى الذى أداه الأزهر فى الحياة العقلية للقاهرة الفاطمية ، من ذلك الموقف الذى وقفه منه صلاح الدين الأيوبى عندما أحدث بمصر الانقلاب السلفى « السنى » بعد عهد الفاطميين ، إذ أوقف الدراسة فى هذه الجامعة لفترة من الزمن [٢] ، حتى تمكن من تغيير مناهجها وعلومها والقائمين على التدريس فيها ! وحتى استطاع أن يجعل من المدارس السنية التى فتحها منافسًا خطيرًا لهذا المعهد العتيد .

دار الحكمة :

أما دار الحكمة ، فهى تلك الأكاديمية العلمية والفكرية التى أنشأها الحاكم بأمر الله فى مارس سنة ١٠٠٥م ـ (جمادى الآخرة سنة ٣٩٥هـ) ، فى المكان المواجه لمسجده ـ (الجامع الأقمر) ـ بدرب الخضيرى بباب التبانين . ولقد ضمت هذه الأكاديمية فروعًا وأقسامًا للقرآن وعلومه ، وللعلوم الدينية ، وللفلك ، والطب ، والنحو وعلوم اللغة المختلفة .

---

(١) الحاكم بأمر الله : ص ١٥٥ ، ٣٦٣ وسيرة القاهرة : ص ١٢١ .
(٢) سيرة القاهرة : ص ١٣٢ .

ولقد كانت دار الحكمة هذه تشمل مناهجها فى بداية عهدها تدريس العلوم الدينية والإلهية من وجهتى النظر الشيعية والسنية ، ثم اقتصرت فيما بعد على الاتجاه الشيعى ، تمشيًا مع اتجاه الدولة الفكرى ، وبسبب من المشكلات التى حدثت بين فقهاء هذين الاتجاهين فى ذلك الحين .

ولعل من أروع ما ازدانت به هذه الأكاديمية ، هى تلك المكتبة التى تعد بحق من مفاخر مصر الفاطمية وعاصمتها القاهرة ، والتى جمع فيها الحاكم بأمر الله كل ما حوت القصور والدور من كتب ومجلدات ، حتى لقد تجمع فيها من الكتب «ما لم ير مثله لأحد قط من الملوك ،وأباح (الحاكم بأمر الله) ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم » . وقام بوقف قطاع كبير من أملاكه الخاصة عليها وعلى الأزهر وعدد من المساجد الأخرى . وبذلك ، أُجريت الأرزاق والمرتبات على علماء دار الحكمة وموظفيها وخدمتها ، ووضعت تحت يد الباحثين والدارسين والنساخ ، بالمجان ، سائر ما يحتاجون إليه من الأوراق والأقلام والمحابر والأحبار.

وأخذت هذه الأكاديمية تقوم فى الحياة الفكرية بدور هام وعملاق . وبعد قيامها بسنوات ثمانية (سنة ٤٠٣ هـ ـ سنة ١٠١٢ م) ، أخذ علماؤها المتخصصون يحضرون إلى مجلس الحاكم فى القصر للمناقشة والمناظرة والجدل والمدارسة ، كل جماعة متخصصة فى فرع من فروع العلم على حدة ، وكانوا جميعًا يعودون وقد خلع عليهم الحاكم ومنحهم العطايا والهبات [١] .

فإذا علمنا أن دار الحكمة هذه قد أُفردت فيها للنساء الدارسات مجالس خاصة بهن ، وأضفنا إلى هذه الحقيقة الهامة ذلك الدور الكبير الذى قامت به فى ميدان الدعوة الفاطمية ، بل والسلطة السياسية باليمن ، زمن الخليفة المستنصر ، السيدة الحرة الملكة « أروى بنت أحمد الصليحى » ، والتى كانت حاكمة وداعية من دعاة الفاطميين باليمن ، بل ومشرفة على توجيه الدعاة فى هذه المنطقة وما

---

(١) راجع خطط المقريزى : جـ ١ ، ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ . والحاكم بأمر الله : ص ١٥٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٣٩٠-٣٩٣ .

يليها مـن الجنوب الشرقـى ، والتى بعـث إليهـا المستنصر بالكثير مـن الرسـائل ـ (السجلات) ـ التى تبرز دورها هذا وتزكيـه ـ إذا وضعنا هذه الحقيقة فى الاعتبار ، أدركنا أن الدعـوة الشيعية الفاطمية ، فى نظـرتها للمرأة ودورها ، إنما كانـت تفرق بين نوعين من النساء :

أولهما : ويشمل أغلبية النسـاء ، اللاتى يتخذن مـن مؤهلات الأنوثـة سلاحًا يضمن به وسائل العيش والراحة والرفاهية فى هذه الحياة ، وهن « أرباب الحجال » المحجبات المخدرات ، اللاتى تتفق فى النظرة إليهن الدعوة الشيعية الفاطمية ، فى عصرها مع النظرة الشرقية التقليدية بوجه عام .

وثانيهما : ويشمـل القلة مـن النسـاء اللاتـى جلسـن فى دار الحكمة للـدرس والتفقـه وتحصيـل العلـوم ، أو انخـرطن فى سلـك الـدعـاة والمبشريـن والمنظمين السيـاسيين ، أو اضطلعن بمسئـوليات سيـاسية وإداريـة فى جهاز الحكـم ، كما حدث للسيـدة الحرة الملكة « أروى بنـت أحمد الصليحى » ، التـى يتحدث عنهـا المستنصر فيقول : إننـا « أخرجنا إياهـا من زمرة ربـات الحجال إلى سياسة الـدولة وتقديـم الرجـال ، لما لمع نور إيمانها ، ونيتهـا وإيقانها ، وأنها بـالزهـد معروفـة ، وبالتقى مـوصوفة ، فاستحقـت ما خولناها ، وقـامت بشكر ما أنلنـاها ، ورعت أحـوال المؤمنين رعـايـة الـدعـاة ، وسلكت فى تـربيتهـم مسلكًـا قـارب مسلـك الهداة ! »[1].

ولقد بلغ من أهمية هذه الأكاديمية العلمية والفكرية ، ومن اهتمام الحاكم بأمر الله بها ، وتركيز الجهد الفكرى للدولة فيهـا ، أن ذبل دور الجامع الأزهر بجانبها ، حتى وجدنا فى سجـل الوقفية التى وقف بها الحاكم بعض أمـلاكه بمصر والقاهرة على هذه الـدار ، والأزهر ، وبعـض المساجـد الأخرى ، والـذى حوى تفـاصيل المنصرف على الأزهر ، وجـدنا فى هذه التفـاصيل كل مـا يتعلق بالأزهـر كمسجد جامع ، لا كجامعة علمية وفكرية ، كما كان فى عهد الخليفة العزيز [2].

(١) السجلات المستنصرية : ص ٧٦ . تقديم وتحقيق د. عبد المنعم مجاهد ط . القاهرة ١٩٥٤م .
(٢) راجع نص هذه الوقفية فى ذيل كتاب (الحاكم بأمر الله) : ص ٣٩٠ـ٣٩٣ .

وإذا كان الأزهـر ، كجامعـة فكريـة ، قد تعـرض للإغـلاق المؤقت مـن قبل صلاح الدين الأيوبى ، بعد زوال النظام الشيعى الفاطمى ، فإن دار الحكمة هذه قد تعرضت للإغلاق الدائم والمؤبد من قبل الأيوبيين . بل لقد أغلقها الأفضل بن بدر الجمالى ، فى عهـد نفوذ الـوزراء والجند ، وخفـوت صوت العقـل والفكر ، فى مرحلة اضمحـلال الدولة الفاطمية . ثـم أُعيدت مرة أخرى فى زمـن الخليفة الآمر بأحكام الله فى ربيع الأول سنة ٥١٧ هـ ـ (سنة ١١٢٣م) فى مكان آخر غير مقرها الأول ، بجـوار القصر الشرقـى الكبير [١] ، ولم تـزل عامـرة حتى زالـت الدولـة الفاطمية .

المكتبـات :

وثـالث الأدلـة التـى نسـوقها على عمـق الحركـة الفكـرية وأصـالتهـا فى مصر الفاطميـة ، يتمثل فى تلـك المكتبات التـى جمعها الفـاطميون ، وبـذلوهـا للعلماء والمتعلمين ، والتـى اعتبرها المؤرخـون السلفيون ، المعـادون للفاطميين ، إحـدى عجائب الدنيا فى ذلك الحين ، « لأنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الـدار التى بالقـاهرة » . فإذا علمنـا أن قائل هـذا هو المؤرخ الأيوبـى المعادى للفاطميين المعروف بأبى شامة ، وأنه قد قال هذا القول قبل أن يدخل التتار بغداد فيخربـوا مكتباتها بما يقرب مـن المائة عام ، علمنا عظم هـذه الثروة الفكريـة التى اشتملت عليهـا مكتبات القاهـرة فى ذلك التـاريخ ، حتى قيـل إن مكتبة القصر الفاطمى وحدها ، عندما حكـم صلاح الدين الأيوبى ، وبعد أن نُهب منها الكثير زمـن الشدة المستنصريـة ، « كـانت تحوى ألفـى ألـف وستمائة ألف كتـاب (أى ٢,٦٠٠,٠٠٠ كتاب) .

---

(١) خطط المقريزى : جـ١ ، ص ٤٤٥ .

فإذا أردنا أن نعلم أبعاد قول المؤرخين بأن الفاطميين قد جعلوا مكتباتهم مبذولة لسائر الناس من سائر الطبقات ، وكيف تغلبوا ، عن طريق قسم النسخ الذى أقيم فى دار الحكمة ، على عقبة انعدام الطباعة فى ذلك العصر ، وقلة عدد نسخ الكتاب المخطوط ، فإنه يكفينا أن نعلم أن هذه المكتبة قد ضمت من كتاب تاريخ الطبرى ١,٢٠٠ نسخة مخطوطة ، إحداها بخط محمد بن جرير الطبرى نفسه ، وإحدى نسخ هذا الكتاب قد اشتراها الخليفة العزيز بمائة دينار . . وأن كتاب « العين » للخليل بن أحمد كانت له فيها ثلاثون نسخة ، إحداها بخط المؤلف . . وأن « جمهرة بن دريد » كانت لها فيها مائة نسخة . . كما كان فى هذه المكتبة « من الكتب الكبار . . ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين مجلدًا » . . وأنه قد كانت لهذه المكتبة « خزائنها فى القصر ، مرتبة البيوت ، مقسمة الرفوف ، مفهرسة بالمعروف » . . وأنه بعد مرور خمس سنوات على زوال الدولة الفاطمية ، وفى سنة ٥٧٢ هـ (سنة ١١٧٦م) ، وبعد أن مورست فيها أعمال السلب والنهب من قبل الجنود « الغز » والأتراك ، وتحت إشراف الأمير بهاء الدين قراقوش « وهو تركى لا خبرة له بالكتب ، ولا دراية له بأسفار الأدب » ، وبعد أن احتال عليه الدلالون والسماسرة ، فأوهموه أن « هذه الكتب قد عاث فيها العث . . ولا غنى عن تهويتها ونفضها . . وكان مقصود دلالى الكتب أن يوكسوها ويخرموها ويعكسوها » ، حتى تئول إليهم بأبخس الأثمان ، بعد كل هذا الذى حدث لهذه المكتبة طوال خمس سنوات ، ينقل أبو شامة عن عماد الدين الكاتب ، محمد بن محمد الأصفهانى ، المؤرخ ، صاحب (البرق الشامى) ، أنه رأى « خزائنها مشتملة على قريب مائة وعشرين ألف مجلدة ، مؤبدة من العهد القديم مخلدة ، وفيها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدى ، واقتطعه التعدى ، وكانت كالميراث مع أبناء الأيتام ، يتصرف فيها بشره الانتهاب والالتهام ، ونقلت منها ثمانية أحمال إلى الشام ! » [1].

---

(١) كتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ . واتعاظ الحنفا : ص ٢٧٨.

فإذا علمنا أن بقايا هذه المكتبة ، مثلها مثل بقايا قصور الفاطميين ، قد ظلت معروضة للبيع مدة عشر سنوات ، أدركنا عظم هذا الصرح الفكرى الذى بنته مصر الفاطمية ، وفداحة الخسارة التى أصابته عندما زالت هذه الدولة من الوجود .

فن الكلمة :

ورابع الأدلة على عمق هذه الحركة الفكرية والأدبية وأصالتها فى مصر الفاطمية ، ذلك المستوى الذى بلغه النثر الأدبى ، ووصلت إليه كتابة الرسائل ، وجودة صناعة الإنشاء تحت إشراف عدد من الأدباء والعلماء الذين أشرفوا وقاموا بالعمل فى ديوان الإنشاء ، من أمثال ابن الخلال والقاضى الفاضل ، وغيرهما من الذين تولوا عمل هذا الديوان .

ونحن إذا أردنا أن ندرك ، فى إيجاز ، المستوى الأدبى الرفيع الذى وصلت إليه هذه « الصناعة » الأدبية ، فما علينا إلا أن نقرأ حديث القاضى الفاضل عنها ، وعن قصته معها ، عندما يقول :

إنه قد « كان فن الكتابة فى زمن بنى عبيد (الفاطميين) غضًا طريًا . وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأسٍ يرأس مكانا وبيانا ، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانا ، وكان من العادة أن كلاً من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد وشدا شيئًا من علم الأدب ، أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ، ويتدرب ويرى ويسمع . . فأرسلنى والدى ، وكان إذ ذاك قاضيًا بثغر عسقلان ، إلى الديار المصرية فى أيام الحافظ ، أحد خلفائها ، وأمرنى بالمسير إلى ديوان المكاتبات . وكان الذى يرأس به فى تلك الأيام ، رجلا يقال له ابن الخلال . فلما حضرت الديوان ، ومثلت بين يديه ، وعرفته من أنا وما طلبى ، رحب بى وسهل ، ثم قال : ما الذى أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فقلت : ليس عندى شىء سوى أنى أحفظ القرآن العزيز وكتاب الحماسة . فقال : وفى هذا بلاغ . ثم أمرنى

بملازمته . فلما ترددت إليه ، تدربت بين يديـه . ثم أمرنى بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة ، فحللته من أوله إلى آخره ، ثم أمرنى أن أحله مرة ثانية فحللته » [١] .

وإذا كـانـت الـرسـائل الستة والستـون ، التـى ضمهـا كتـاب (السجـلات المستنصرية) ، إنما تقدم لنا نموذجًا لجودة « فن الكتابة » النثرية فى ذلك العصر ، فإن الأمر الـذى لا شك فيه أن الشعر العربـى فى مجتمع القاهرة الفاطميـة قد بلغ درجـة من الـرقـة والجذالـة تستحق الـدراسـات المفصلـة ، فى غير هذا المكـان ، وتستوجـب منا هنا وقفة سريعـة نعطى فيها النماذج الصغيرة والجيدة الـدلالة على صدق ما نقول . .

فالشاعر أبو المعالى عبد العزيز بن الحسين بن الحباب يتحدث عن السيوف ، فيقول :

ومِن عجبٍ أنَّ السُّيوفَ لديهمُ	تحيضُ دماءً ، والسُّيـوفُ ذكورُا!
وأعجـبُ مَـن ذا أنَّها فى أكُفِّهـمْ	تـأجّجُ نـارًا ، والأكفُّ بحـور!

كما يخلف لنا سخرية شعرية لاذعة مـن طبيب لم يحسن علاجه من الحمى التى أصابته ، فيقول فيه :

وأصـلُ بَليَّتـى مَـن قـد غـزانـى	مِـنَ السُّقـم المُلِـحِّ بعسكـريـنِ
طبيــبٌ طِبُّــه كغــراب بَيْنٍ	يُفــرِّقُ بين عــافيتــى وبينــى
أتى الحمَّى وقد شاخت وباخَت	فــردَّ لها الشبــابَ بنسختين
ودبَّـــرَهــا بتـــدبيرٍ لطيـــفٍ	حكاه عـن « سنانٍ» أو « حنينٍ»
وكـانــت نـوبــةً فى كـل يــوم	فصيَّرها ، بحـذقٍ ، نوبتين [٢] !

---

(١) كتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٤٨٧ ، ٤٨٨ .

(٢) المصدر السابق : جـ ١ ، ص ٣٦٠ـ ٣٦٢ .

كما كان للشعر الغنائى فى مجالس اللهو والطرب والصفاء بالقاهرة فى ذلك العصر ، مكان رحب وموقع جميل . وهذه جارية جميلة حسناء اشتراها من بغداد تميم ابن الخليفة المعز لدين الله ، وعاشت فى القاهرة ، بعد أن خلفت لها حبيبًا عاشقًا فى بغداد . فإذا كانت إحدى الليالى ، غنت للأمير فى مجلس طربه شعرًا قالت فيه :

وبَدَا له مِن بعدِ ما انتقلَ الهَوى ... بَرقٌ تألَّقَ مِن هنا لَمعانُه

يبدو لحاشيةِ اللواء ، ودونَهُ ... صعبُ الذُّرى متمنِّعٌ أركانه

فبدَا لينْظرَ كيفَ لاحَ ، فلمْ يُطقْ ... نظرًا إليهِ وشدَّهُ أشْجانه

فالنارُ ما اشْتملتْ عليهِ ضلوعُهُ ... والماءُ ما سَمَحتْ بهِ أجْفانه!

حتى إذا طرب الأمير ، وسألها ماذا تريد ، طلبت منه السماح بأن يغنى هذا الشعر فى ربوع بغداد . وبعد وجوم ، أجابها إلى طلبها ، فما كان منها عندما اقترب الركب من بغداد إلا أن غافلت حراسها وهربت إلى حيث الحبيب العاشق [1]! .

ولولا الحرص على الإيجاز الذى يفرضه حيز هذه الدراسة ، لقدمنا من شعر القاهرة فى ذلك العصر النماذج العديدة والجيدة التى تعكس المستوى الرفيع الذى بلغه الشعر يومها ، على يد كثير من الشعراء الذين سبقت إشارتنا إلى أسماء بعضهم منذ حين .

* * *

وإذا كانت هذه الأدلة التى سقناها هنا على أصالة الحركة الفكرية العربية فى مصر الفاطمية ، إنما تجسد أبعاد هذه الحركة طولاً وعرضًا وعمقًا ، فإن هناك ملاحظة نود أن نختتم بها هذه الجزئية من جزئيات هذه الدراسة ، تتعلق بمدى شمول هذه الحياة الفكرية العربية لكل المواطنين ، الذين سكنوا العاصمة يومئذ بوجه خاص ، أو قطنوا مصر يومها على وجه العموم . وبمعنى مباشر : هل

---

(١) البداية والنهاية : جـ ١١ ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

كانت هذه الحياة الفكرية شاملة للمسلمين والأقباط؟ أم كانت قسمة للمجتمع المسلم فقط من دون المصريين المسيحيين ؟

ونحن نستطيع أن نقطع فى الإجابة بأن هذه الحياة الفكرية الخصبة والغنية ، إنما كانت قسمة للمجتمع المصرى بأكمله . وذلك ، لأن عملية « تعرب » هذا المجتمع ، كانت قد تمت تمامًا ، واكتملت ملامحها فى القرن « العاشر الميلادى ، حتى كان رجال الكنيسة القبطية يضطرون إلى وضع كتاباتهم باللغة العربية ، لكى يفهمها أهل دينهم .

وقد كان أكبر عامل فى انتشار الثقافة العربية فى مصر ، بتلك الدرجة الناجحة التى لم تبلغها سابقتها الهلينية ، هو نزوح العرب الرحل إليها ، نزوحًا تدريجيًا واسع النطاق ، واستقرارهم بها [1] .

وبذلك ، نستطيع أن نقول : إن قيام القاهرة كعاصمة للخلافة الفاطمية ، بعد أن كانت مصر مجرد ولاية عباسية أو أموية ، إنما كان مرحلة هامة من مراحل تعميق عملية التعريب التى كانت قد تمت بالفعل . ومن ثم ، فإن حركة مصر الفكرية التى نتحدث عنها ، إنما كانت من العمق والأصالة والشمول لكل سكانها ، بحيث يمكن أن نعتبرها إطارًا قوميًا ساهم مساهمة قوية فى بلورة الشخصية المصرية العربية منذ ذلك الحين . بل لقد كانت هذه المرحلة من مراحل تاريخ مصر ، هى الإيذان بنضج الشخصية العربية لمصر ، بعد أن فتحها العرب المسلمون قبل هذا التاريخ بعدة قرون .

---

(١) جورج كيرك (موجز تاريخ الشرق الأوسط) : ص ٣٧ . ترجمة عمر الإسكندرى ط . الألف كتاب . ومحمد عمارة (فجر اليقظة القومية) : ص ١٧٤ ، ١٧٥ ط . القاهرة سنة ١٩٦٧م .

الفصل الخامس

"الدولة" الفاطمية في مصر

● دراسة لجهاز « الدولة » الفاطمية الذى حكم البلاد . . وملامحه الإدارية . . وجهازه العسكرى . .

جهاز الدولة الفاطمية

على الرغم من أن نظام الشورى الإسلامى ، الذى أشاد به القرآن الكريم ، فيما يتعلق بالإدارة السياسية وطريقة اختيار الحكام ، والبت فى معضلات الأمور ، والذى طبقه المسلمون فى عصر الخلفاء الراشدين ، على الرغم من أن هذا النظام قد تحول إلى خرق ممزقة على يد الدولة الأموية ، ثم على أيدى العباسيين ، حينما أصبح الأمر « ملكًا » ونظامًا ملكيًّا ، وافترق معناه ومبناه عن معنى « الخلافة » ، ومبناها [1] ، وعلى الرغم من أن الكثير من قسمات النظام الملكى المعتمد على الوراثة والاستبداد، قد شابت نظم الحكم الإسلامية فى هاتين الدولتين ، فإننا نستطيع أن نقول : إن القاعدة التى قامت عليها نظرية « الإمامة » عند الشيعة ـ والفاطميون أحد تياراتها الفكرية والسياسية ـ إنما تمثل أوضح تجسيد لهذه النظرية الإقطاعية الشهيرة عن « الحق الإلهى ، والتفويض » الممنوح للإمام من قبل الله ، والذى لا يحده ولا يقيده المحكومون بأى نوع من الحدود أو أى قدر من القيود .

فلقد كان الإمام لدى هذه الفرقة الإسلامية ، التى تأثرت كثيرًا ، وفى هذا الموضوع بالذات ، بالتراث الإقطاعى للأكاسرة الفرس الساسانيين ، إنما يصير إمامًا تبعًا للوصية التى أوصى بها الرسول عليه الصلاة والسلام إلى جدهم على بن أبى طالب ، والتى تسلسلت وانتقلت ، بالحلول تارة ، والتجسد أخرى ، فى نسله ،

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٦٥ ط . القاهرة سنة ١٩٠٤م .

حتى وصلت ـ لدى الفاطميين ـ إلى عبيد الله المهدى (٩٠٩ ـ ٩٣٤م ، ٢٩٧ ـ ٣٢٢ هـ) ، أول خلفائهم بالمغرب ، ثم القائم (٩٣٤ ـ ٩٤٦م ، ٣٢٢ ـ ٣٣٤هـ) ، ثم المنصور (٩٤٦ ـ ٩٥٢ م ، ٣٣٤ ـ ٣٤١هـ) ثم المعز لدين الله ، الذى اتخذ القاهرة عاصمة ، ومصر مركزًا لهذه الخلافة الشيعية الإسماعيلية الفاطمية .

وليس معنى ذلك ، أن جهاز الدولة الذى عرفته مصر لم يكن يعرف التسلسل الوظيفى ، ولا أنه كان فرديًا بشكل مطلق ، وضيق الحدود والإطار . وذلك ، لأن ترامى أطراف الدولة ، واتساع المهام الداخلية والخارجية أمامها ، قد فرضا عليها السير فى الطريق الطبيعى للسياسة والإدارة والعسكرية .

الجهاز السياسى والإدارى

شهدت مصر نظامًا سياسيًا وإداريًا : معقدًا ومتشابكًا ، ضم جهازًا سياسيًا وإداريًا تمثل فى عدد من الدواوين (الوزارات) ، أهمها :

أ ـ ديوان الإنشاء والمكاتبات .

ب ـ ديوان الجيش والرواتب ، وكان قاصرًا على الموظفين المسلمين .

جـ ـ ديوان الجهاد ، وكان خاصا بالأساطيل البحرية ، حربية كانت أم مدنية .

د ـ ديوان المجلس ، وكان مختصًا بالمراجعة على الدواوين الأخرى .

هـ ـ ديوان النظر ، وكان مختصًا بشئون الأموال .

و ـ ديوان التحقيق ، وكانت اختصاصاته هى المقابلة على الدواوين المختلفة .

ز ـ ديوان الأوقاف والأحباس .

حـ ـ ديوان المواريث والفرائض .

ط ـ ديوان الصعيد ، وكان مختصًا بمصر العليا .

ى ـ ديوان أسفل الأرض ، وكان مختصًا بالوجه البحرى .

ك ـ ديوان الثغور ، وكان مختصًا بالموانى البحرية والنهرية .

ل ـ قاضى القضاة ، وهو بمثابة وزير العدل ، ومن خلفه قضاة النواحى والأقاليم .

م ـ داعى الدعاة ، وكان بمثابة فيلسوف الدولة ، والقائم على نشر أيديولوجيتها .

ن ـ المحتسب ، وكانت له الولاية فى كثير من أمور التجارة الداخلية ، والنظافة ، والتنظيم العمرانى ، والإشراف على مراعاة الأخلاقيات التى استقر المجتمع على احترامها .

س ـ ديوان الشرطة ، وكانت مقسمة إلى الشرطة العليا ، وتختص بالقاهرة ، والشرطة السفلى ، لمدينة مصر [1] .

كما عرف النظام السياسى للدولة الفاطمية منصب « الوزارة » ، وكان الوزير يمثل الرجل الثانى فى الدولة ، بعد أمير المؤمنين ، وله الإشراف والتنفيذ والتفويض فى كل ما يتعلق بسائر الدواوين .

كما عرف هذا النظام السياسى كذلك « السلاطين » ، و « الملوك » ، الذين يوليهم الخلفاء حكم إقليم من الأقاليم . وقد كانوا يحملون هذه الألقاب الفخمة ، أو يقتصر على مجرد تلقيبهم بالعمال والولاة تبعًا لشأنهم ولشأن ذلك الإقليم ، وتبعًا لما عليه الخلفاء من قوة أو ضعف .

أما عن العلاقة بين كل هذه الأجهزة والرعية من جانب ، وبين أمير المؤمنين من جانب آخر ، فإننا نستطيع أن نلخصها فى أنه قد كانت للخليفة حقوق قبل الملوك والسلاطين والوزراء والولاة ومديرى الدواوين والرعية بأكملها . وكانت هذه الحقوق تتمثل فى السمع والطاعة فى كل شىء من جانبها . كما أنه لم يكن للرعية أية حقوق على هؤلاء الخلفاء !! وكان على الرعية أن تطيع وأن تعطى ، وعلى

---

(١) الحاكم بأمر الله : ص ٣٢٦ ـ ٣٤١ . واتعاظ الحنفا : ص ٢١٦ .

الوزراء أن يدبروا السياسة وأن يتولوا الجباية للأموال من الرعية ، وعلى العمال هم كذلك أن يقوموا بالجباية للأموال من الرعية . أما الملوك ، فلقد كان لهم تدبير السياسة فى أقاليمهم ، والطاعة لأمير المؤمنين . وداعى الدعاة حميد الكرمانى يلخص هذه القضية بقوله : « إن طاعة الإمام جامعة للملوك والرعايا ، والرعايا تجمع الإعطاء والطاعة ، وإن الوزير يجمع السياسة والجباية ، والجباية جامعة للوزراء والعمال ، وإن الملك يجمع الطاعة والسياسة ، والعامل يجمع الجباية والإعطاء ، وإن الإعطاء جامع للعمال والرعايا ، وإن السياسة مشتركة »[1].

الجهاز العسكرى

كما شهدت مصر نظامًا عسكريًا : تمثل فى الجيوش القبلية والمملوكية المجلوبة من بلاد غير عربية ، والتى لعبت دورًا كبيرًا فى فتوحات الفاطميين ، ثم آل بها الأمر إلى السيطرة على مقدرات هذه الدولة وتحويلها إلى شكل فارغ بلا مضمون ، كما سيأتى فيما بعد .

ولقد كانت طبقات رجال الجيش الفاطمى ، تتدرج فى مراتب ثلاث :

أ ـ الأمراء ، وهم بمثابة مقدمى الجيوش .

ب ـ خواص الخليفة ، وهم رؤساء حرسه الخصوصى .

جـ ـ طوائف الأجناد المختلفة .

كما كان يطلق على قائد الجيش لقب « الإسفهسلار» ، وهو اصطلاح عسكرى يتضح معناه عندما نعلم أن مقطعه الأول : « إسفه » هو كلمة فارسية معناها : مقدم ، وأن مقطعه الثانى والأخير : « سلار» هو كلمة تركية معناها : عسكر ، فهو إذن مقدم العسكر وقائد الجيش .

---

(١) الحاكم بأمر الله : ص ٣٢٨ ، (نقلاً عن كتاب (راحة العقل) لحميد الدين الكرمانى : ص ٢١٤).

ولقد كانت طوائف الجند ، التى اعتمدت عليها الدولة الفاطمية فى فتوحاتها ، والتى شاركت كذلك فى الصراعات الداخلية التى شهدتها فى عصر اضمحلالها ، كثيرة ومتعددة بتعدد القبائل المغربية والنواحى والأقاليم التى امتد إليها نفوذ الفاطميين . فهناك أجناد من كل من « كتامة » و « معمورة » و « زويلة » ، وهى قبائل مغربية . وهناك كذلك « البرقية » ، نسبة إلى منطقة برقة . وهناك الأجناد «الروم » و « الترك » و « الديلم » و « السودانيون » ، نسبة إلى هذه الأجناس . وهناك كذلك « الجودرية » ، أتباع جودر ، و « العطوفية » ، أتباع عطوف ، و«اليانسية » ، أتباع يانس ، وكذلك « الوزيرية » و « المحمودية » و « الباطلية » و«المنصورية » وغيرهم كثير .

وإذا كان الجيش الفاطمى ، الذى فتح مصر ، قد بلغت عدته مائة ألف مقاتل ، فإن الحروب التى ظلت قائمة بين الدولة الجديدة وأعدائها الخارجيين ، قرامطة كانوا أم عباسيين أم صليبيين ، قد احتفظت لهذا الجيش بالكثير من النفوذ والحجم الكبير ، حتى جاء وقت أسلمت فيه الدولة الفاطمية روحها للقوة والجندية التى أخذت تتحكم فيها منذ أن تولى بدر الجمالى السلطة والسلطان ، زمن الخليفة المستنصر سنة ١٠٧٥ م ـ سنة ٤٦٨ هـ .

ولقد بلغ تعداد الجيش الفاطمى ، زمن سلطان « الوزير » طلائع بن رزيك ، الذى لقب نفسه بلقب « الملك الصالح » ، حسب رواية المقريزى ٧٦,٦٠٠٠ جندى ، من بينهم ٤٠,٠٠٠ من الفرسان . وذلك ، غير القوة البحرية التى بلغت أحيانًا ١٠٠ قطعة خاصة بالقتال والجيش ، وذلك غير خمسين مركبًا بحريًا مدنيًا كانت مملوكة لأمير المؤمنين [1] .

---

(١) المصدر السابق : ص ٣٢٦ ـ ٣٤١ . وكتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٤٠٨ . وتاريخ العرب : جـ ٣ ، ص ٧٤٢ .

الفصل السادس

عن الحاكم بأمر الله

● دراسة عن مغزى تصرفات الحاكم بأمر الله . . وماذا كانت تعنى المراسيم والقوانين التى أصدرها ، تلك التى اتهمه البعض بسببها بالمرض والجنون . .

قسمات هامّة وطريفة

ونحن نعتقد أنه لا يمكن لعين الباحث أن تتصفح مراحل حياة مصر الفاطمية ، دون أن يسترعى انتباهها تلك القسمات التى ميزتها فى عهد الحاكم بأمر الله (٩٩٦ ـ ١٠٢١م) . كما لايمكن الكتابة عنها ، إلا إذا تناولت هذه الصفحة من حياتها بالدرس والتقييم ، خصوصًا أن شخصية الحاكم ، وأسلوبه فى إدارة شئون الحكم ، والمراسيم الشهيرة التى أصدرها ، والتى عاد فألغى بعضًا منها ، كل ذلك قد جعله فى أذهان الكثيرين شخصية غامضة وشاذة ومهوشة التفكير .

ولقد تراوحت وجهات نظر المؤرخين والباحثين حيال هذه الشخصية ما بين اعتبارها مصابة بضرب « من ضروب المالنخوليا ، وفساد التفكير » ، كما ذهب إلى ذلك يحيى الأنطاكى فى تاريخه والنويرى صاحب (نهاية الأرب)، وإلى أنه كان مصابًا « بجفاف فى دماغه » ، كما ذهب إلى ذلك المقريزى فى خططه ، وإلى اعتباره مجنونًا ، ولكن مصلحًا كذلك ، أو مصلحًا ، ولكن على طريقته الخاصة ، أو مكافحًا للانحلال « الشامل الذى سرى إلى مجتمعه بقوانين بوليسية صارمة ، وأحيانًا غريبة شاذة » [1].

---

(١) راجع آراء الأنطاكى ، والنويرى ، وميللر ، ودوزى ، فى كتاب (الحاكم بأمر الله) : ص ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٦٩ ، ١٧٣ .

ونحن نرى أن شخصيـة الحاكم بأمر الله ، شخصية تاريخيـة قد أصابها الكثير مـن الظلــم والتعسـف فى التفسير والتحليــل ، مـن قبـل الكثير مـن المؤرخين والباحثين . بل ونرى أن هذا الظلم قد انسحبت أذياله على القاهرة ومصر ، فبدت فى ثوب من السخرية والاضطراب ، وجو من الإجراءات التى لا رابط لها ولا منطق وراءها ، خـلال فترة حكم هذا الخليفـة التى امتدت ربع قـرن من الزمـان . ومن ثـم ، كانـت لوقفتنـا هذه عنـد هذه الصفحـة من كتـاب حياة مصر أهميـة كبرى لـلإنصـاف وجلاء حقيقـة الأحـداث والمراسيـم التـى وقعت وصـدرت فى تلـك السنوات .

ونحن نعتقد أن ترتيب أحداث هذه الفترة ، والنظر إليها على ضوء أيديولوجية الـدولة الفـاطميـة ، وعلى ضوء الأحـداث التـى عاصرتها ، ومـن خـلال مراعـاة العلاقـات المتشابكـة والمعقدة التـى تقوم عـادة بين القوانين والمراسيـم وبين البيئة والأحداث والأشخاص والصراعات ، هو المنهـج الكفيل بتبديد الجزء الأكبر من الغموض والغرابة والاستغراب التى تصيب القارىء عندما تدفع إليه أحداث هذه السنوات ركامًا مختلطًا دونما ترتيب أو تبويب أو تفسير .

شخصية الحاكـم . . والتحديات التى واجهته :

١ ـ فالحاكم بأمر الله ، الذى ولـد فى ٢٣ من ربيع الأول سنة ٣٧٥ هـ ـ (١٣ من أغسطـس سنة ٩٨٥م) ، كانـت تبدو عليه منـذ حداثـة سنة مظاهـر التفوق والذكـاء وقوة الشخصية ، وقسمات الإنسان المتميـز عن الأشباه والأقـران . وكان صاحـب اهتمامات ثقافيـة وفكريـة مبكرة ، لا فى مجال الفلسفة والتشيـع والفلك والتنجيـم فقـط ، كما اشتهـر عنه ، بل وفى مجال التـذوق الأدبـى للشعـر والنثـر والمشاركة فى مجالسها ومخالطة أعلامها فى ذلك الحين [١].

(١) المصدر السابق : ص ٩١ .

٢ ـ ولقد كانت خلقة الحاكم بأمر الله تساعده كذلك على الإحساس بأنه شخص متميز عن الآخرين ، وتؤكد لديه هذا الإحساس . فلقد وصفته الروايات المعاصرة له ، فقالت : « كان منظره مثل الأسد . وعيناه واسعتان شهلاوان ـ (يخالط سواد عينيه زرقة) ـ وإذا نظر إلى الإنسان يرتعد لعظم هيبته . وكان صوته جهيرًا مخوفا . . ولقد كان جماعة يعمدون للقائه فى أمور تضطرهم إلى ذلك ، فإذا أشرف عليهم سقطوا على الأرض وجلا منه ، وفحموا عن خطابه ! »(١) .

٣ ـ وعندما بويع هذا الصبى المتفوق ، ابن الأحد عشر عامًا ، بالخلافة فى ٢٨ من رمضان سنة ٣٨٦ هـ ـ (سنة ٩٩٦ م) ، وجد نفسه واقعًا تحت أسر شديد وثقيل يتمثل فى سلطة « برجوان » الصقلبى ، الذى تقف خلفه الأجناد الصقالبة ، و« الحسن بن عمار » زعيم قبيلة كتامة ، الذى تشد من أزره جنود كتامة الأشداء الكثيرون ، وذلك بالإضافة إلى نفوذ ثالث الأوصياء ، قاضى القضاة محمد بن النعمان ، والذى كان أقل هؤلاء الثلاثة سلطة وسلطانًا .

وليت الأمر قد وقف عند هذا الحد . بل لقد شهد الحاكم احتدام الصراعات القبلية ، والنزاعات القائمة على المصالح المادية بين كل من « برجوان » و « الحسن ابن عمار » . وتجاهل الفريقان وجوده كأمير للمؤمنين . وانضم إلى « برجوان » كل الناقمين على قبيلة كتامة من أمثال « بنجوتكين » ، و « ابن الصمصامة » . وقبل أن يمر عام على تنصيب الحاكم خليفة ، وصلت الحرب الباردة بين الفريقين إلى حرب ساخنة ، دارت رحاها بالقاهرة فى شعبان سنة ٣٨٧ هـ ـ (سنة ٩٩٧ م) ، وهى الحرب التى انتهت بهزيمة كتامة ، وعلو نجم « برجوان » والصقالبة ، واستبدادهم بكل أمور البلاد .

٤ ـ ولقد تصرف « برجوان » بإزاء الحاكم ، بعد أن خلا له الجو، أو خيل إليه ذلك ، تصرفات آذت مشاعر الخليفة الشاب ، وجرحت كرامة الفتى الذى

(١) المصدر السابق : ص ١٠٤ .

يستشعر فى نفسه التفوق الذاتى ، فضلاً عما تمنحه إمارة المؤمنين ، والبيعة بالخلافة ، وصلاحيات « الحق الإلهى » ، من شحنات عزة وكرامة ، تجعل من تصرفات « برجوان » معه مواد متفجرة وحارقة تنتظر اشتعال الفتيل . .

ويكفى أن نعلم أن « برجوان » قد حجب الحاكم فى هذه الفترة عن الناس ، وقطع صلته بجهاز الدولة ، وصيره معزولاً فى قصره . ولقد بلغ الحاكمَ عنه أنه يلقبه « بالوزغة » الصغيرة - (الحية) وبلغ به الاستهتار والتعالى حدًّا جعله يتوجه إلى الحاكم راكبًا وثانيًا رجله على عنق فرسه ، وجاعلاً بطن قدمه ، وفيها الخف ، قبالة وجه الحاكم ! ! .

ومن هنا ، فإننا لا نجد غرابة فى أن يدبر الحاكم اغتيال « برجوان » هذا ، وأن ينفذ ذلك فى ١٦ من ربيع الثانى سنة ٣٩٠ هـ (إبريل سنة ١٠٠٠م) ، وأن يعلى هذا الحدث الهام من قدر المغاربة ونفوذهم ، ويقلل من شأن الصقالبة والأتراك فى البلاد .

٥ - ولقد كانت الخطوة الهامة ، التى خطاها الحاكم بعد إزاحة « برجوان » من طريقه ، متمثلة فى ذلك المرسوم الذى أذاعه على الناس ، والذى طلب فيه من الشعب أن يتعامل معه مباشرة ، والذى يمنع فيه أن يكون جهاز الدولة أو أى من زعمائها حائلاً بين الإمام وبين الاتصال المباشر بالجماهير . وهو المرسوم الذى يقول فيه :

« معاشر من يسمع هذا النداء من الناس أجمعين . إن الله ، وله الكبرياء والعظمة ، أوجب اختصاص الأئمة بها لا يشركها فيه أحد من الأمة . فمن أقدم بعد قراءة هذا المنشور على مخاطبة أو مكاتبة لغير الحضرة المقدسة ، سيدنا ومولانا ، فقد أحل أمير المؤمنين دمه . فليبلغ الشاهد الغائب ، إن شاء الله ! »[1].

---

(١) المصدر السابق : ص ١٠١ .

لمن كان القتل ؟

٦ ــ وإذا كان قتل الحاكم لبرجوان قد حدث فى شهر ربيع الثانى سنة ٣٩٠هـ، فإن ذلك لا يعنى أنه كان ينتصر بذلك للمغاربة والكتاميين ضد الصقالبة والأتراك ، الذين قادهم برجوان فى إذلال المغاربة منذ سنة ٣٨٧ هـ ، لأن الحاكم إنما كان يبغى إزالة كل مراكز النفوذ والعصبيات والتكتلات القبلية والجنسية التى كانت تزخر بها العاصمة ، بسبب من تعدد أجناس الأجناد . ولذلك ، فإننا نراه يبدأ منذ سنة ٣٩٠ هـ فى سلسلة من الاغتيالات الفردية ، والمجازر الجماعية ، التى تستهدف القضاء على خطر الفوضى التى تهددت البلاد ، وخطر سيطرة الأجناد على مقدرات الأمور فيها :

- ففى ١٤ من شوال سنة ٣٩٠ هـ (أكتوبر سنة ١٠٠٠م) ، دبر اغتيال الحسن ابن عمار ، زعيم كتامة ، وقائد الكتاميين والمغاربة .
- وفى سنة ٣٩١ هـ (سنة ١٠٠٠م) ، دبر قتل مؤدبه : أبى التميم سعيد بن سعيد الفاروقى .
- وفى سنة ٣٩٢ هـ (سنة ١٠٠١ م) ، دبر قتل ابن أبى نجدة ، الذى كان يتولى ديوان الحسبة .
- وفى محرم سنة ٣٩٣ هـ (سنة ١٠٠٢م) ، دبر قتل أبى على الحسن بن عسلوج، وكان من أكابر المباشرين لشئون المال فى الدولة . وأبوه عسلوج ، هو الذى ولاه المعز خراج البلاد فى سنة ٣٦٤ هـ (سنة ٩٧٤ م) .
- وفى جمادى الأولى سنة ٣٩٣ هـ (مارس سنة ١٠٠٤م) ، دبر قتل وزيره المسيحى فهد بن إبراهيم ، الذى خلف فى تركته نقدًا سائلاً بلغ ما حمل منه إلى الحاكم ٥٠٠,٠٠٠ دينار ، رفض الحاكم أن يأخذ منها شيئاً ، وردها لأخيه قائلاً : « أنا لم أقتله على مال » .
- وفى رجب سنة ٣٩٣ هـ (سنة ١٠٠٢م) ، دبر قتل أبى طاهر محمود بن النحوى، وكان يتولى أعمال الشام ، مشهورًا بالظلم والتعسف والتجبر.

● حتى إذا جاءت سنة ٣٩٤ هـ (سنة ١٠٠٥م) ، نجد الحاكم يشن فيها نشاطًا واسعًا ، يتخلص عن طريقه من أكثر أعيان الدولة وكبار رجالاتها ، وكذلك من عدد كبير جدًّا من أتباعهم وأنصارهم [١] . وفى هذا العام نفسه ، أصدر الحاكم مرسومًا ينكر فيه على الناس مخاطبته بلقب « مولى الخلق أجمعين » [٢].

مراسيم الحاكم الشهيرة :

٧ ـ فإذا جاءت سنة ٣٩٥ هـ ، وجدنا الحاكم بأمر الله يصدر فيها عدة مراسيم نستطيع أن نقسمها إلى مجموعتين متمايزتين :

الأولى : المراسيم الاقتصادية ، المتعلقة بالإصلاحات النقدية التى ثبت بها سعر الدينار على أساس ٢٦ درهمًا من الدراهم المزيدة ، وكذلك المتعلقة بضبط المكاييل والموازين [٣]. ولقد كانت لهذه المراسيم الاقتصادية علاقة بالمجاعة التى حدثت بمصر فى ذلك العام ، بسبب نقصان مياه النيل ، حيث ارتفعت الأسعار واضطربت المعاملات وأسعارها » [٤].

والثانية : تلك المراسيم الاجتماعية والأخلاقية والدينية ، التى نسجت حولها وحول إصدارها الكثير من أساطير الغموض ، والتى ألقت على عصر الحاكم تلك الظلال التى تساهم هذه السطور فى إزالتها وكشفها من فوق وجه مصر الفاطمية فى ذلك التاريخ . ونحن نستطيع أن نقسم هذه المراسيم إلى مجموعات ثلاث ، منها ما هو خاص بالذميين ، ومنها ما هو خاص بالمسلمين السلفيين و«السنيين» ، ومنها ما هو عام وشامل لكل المواطنين .

---

(١) المصدر السابق : ص ١١٠ ـ ١١١ .
(٢) المصدر السابق : ص ١٦٠ .
(٣) المصدر السابق : ص ١٥٧ ، ١٥٨ .
(٤) إغاثة الأمة بكشف الغمة : ص ١٤ .

مراسيم أهل الذمة :

فأما ما يتعلق بأهل الذمة ، والمسيحيين منهم على وجه الخصوص ، فلعل التضييق عليهم والشدة التى أصابتهم فى الملابس ، والمركب ، وتحريم بيع العبيد والإماء المسلمين لهم ، والتى تصاعدت حتى أدت إلى هدم كنائسهم بما فيها كنيسة القيامة ، التى هدمها الحاكم سنة ١٠٠٩م ـ (سنة ٤٠٠هـ) ، إنما كانت رد فعل لذلك النفوذ والتسلط الذى اكتسبه الكثيرون من أغنيائهم والمتولين للسلطة منهم ، وهو الأمر الذى كان محل انتقاد شديد من جمهور المسلمين المصريين .

ولقد كان « العزيز » ، والد الحاكم ، متزوجًا من مسيحية ، أنجبت له ابنة أسمتها « سيدة الملك » . وكانت هذه الزوجة ، وبعدها البنت ، ذات نفوذ واسع فى البلاط الفاطمى . وكان لهذه الزوجة أخوان من البطاركة : « أرسانيوس » ، الذى عينه العزيز مطرانًا للقاهرة سنة ٣٧٥هـ ـ (سنة ٩٨٥م) ، ثم عين بطريركًا للطائفة الملكانية بالإسكندرية سنة ٣٩٠هـ ـ (سنة ١٠٠٠م) . و « أريسطيس» ، الذى عينه العزيز بطريركًا للملكانية فى بيت المقدس سنة ٣٧٥هـ ـ (سنة ٩٨٥م) .

ولقد سبق للخليفة العزيز أن استوزر الوزير المسيحى عيسى بن نسطورس ، وكذلك ولى أمور الشام للوزير اليهودى منشا إبراهيم القزاز ، « فاعتز بهما النصارى واليهود ، وآذوا المسلمين . فعمد أهل مصر وكتبوا قصة جعلوها فى يد صورة عملوها من قراطيس ، فيها : بالذى أعز اليهود بمنشا ، والنصارى بعيسى ابن نسطورس ، وأذل المسلمين بك ، إلا كشفت ظلامتى ! ! وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز ، والرقعة بيدها . فلما رآها أمر بأخذها ، فإذا الصورة من قراطيس ، فعلم ما أريد بذلك ، فقبض عليهما ، وأخذ من عيسى بن نسطورس ثلثمائة « ألف دينار ، ومن اليهودى شيئًا كثيرًا » [١].

---

(١) اتعاظ الحنفا : ص ٢٩٧ . والبداية والنهاية : جـ ١١ ، ص ٣٢٠ .

ولقد سجل لنا الشاعر المصرى الحسن بن بشر الدمشقى تذمر الشعب من هذا النفوذ ، الذى مكنت منه الدولة الفاطمية الوزراء المسيحيين ، وذلك عندما هجا الخليفة « العزيز » ويعقوب « ابن كلس » و « الفضل » القائد ، بقوله :

تنصَّرْ، فالتَّنصُّرُ دينُ حقٍّ عليهِ زمانُنا هذا يَدُلُّ
وقلْ بثلاثةٍ عزُّوا وجَلُّوا وعطِّلْ ما سِواهمْ فهْوَ عطْلُ
فيعقوبُ الوزيرُ أبٌ ، وهذا العزيزُ ابنٌ، وروحُ القُدْسِ فضْلُ [1]!!

بل لقد أفسحت الخلافة الفاطمية الميدان ، ميدان الوزارة ، لغير عيسى بن نسطورس من المسيحيين، فتولاها منهم كذلك « فهد بن إبراهيم » الذى لقب بالرئيس ، ومنصور بن عبدون ، الذى لقب بالكافى ، وزرعة بن نسطورس الذى لقب بالشافى [2]. فإذا جاء الحاكم بأمر الله ، فأصاب بمراسيمه تلك الحريات الدينية والمدنية التى كان يتمتع بها الذميون ، واستجاب بذلك للمشاعر العامة التى كانت سائدة فى ذلك الحين ، فإننا يجب ألا نتخذ من ذلك الموقف ذريعة نرميه بسببها بما رماه الكثير من المؤرخين والباحثين . فهو لم يكن فى موقفه هذا أكثر من حاكم يعالج خطأ بخطأ آخر ، ويسلك فى سبيل إزالة النفوذ غير الطبيعى الذى منحته الدولة للذميين سبل ردود الأفعال العنيفة ، التى كانت إحدى سمات ذلك العصر فى كل المجتمعات .

مراسيم أهل السنة :

أما تلك المجموعة من المراسيم ، التى أصدرها الحاكم فى سنة ٣٩٥هـ خاصة بالمسلمين السلفيين ، فإنها تتلخص فيما هو موجه ضد الاتجاه السلفى مباشرة، مثل ذلك المرسوم الشاذ الذى أصدره بسبب أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية وغيرهم من الصحابة ، الذين وقفوا بشكل أو بآخر موقفًا لا يتفق مع ما

(١) اتعاظ الحنفا : ص ٢٩٨ . (٢) الحاكم بأمر الله : ص ٣٣٠ .

تعتقده الشيعة فى الوصية التى أوصى بها الرسول إلى على بن أبى طالب . ولقد أمر الحاكم بإثبات هذا السب على الجوامع والمساجد والمقابر والدور والحوانيت ، وصبغ لوحاته بالذهب والأصباغ ، وأمر الناس بالجهر به ! !

وبرغم أننا نعتبر أن مرسوم الحاكم هذا هو أمر شاذ ، فإننا لا نصفه بسببه بالجنون ، ولا بما هو أكثر من الغلو فى التشيع لأجداده أهل البيت . وهو غلو لم تكن الأطراف السنية والسلفية بريئة من مثله فى تلك العصور . فنحن نعلم أن تفضيل معاوية بن أبى سفيان على على بن أبى طالب ، كثيرًا ما استخدمه الساخطون على الحكم الفاطمى والمقاومون له ، كعامل يستفزون به الفاطميين. ولقد حدث فى رمضان سنة ٣٦١ هـ (سنة ٩٧١م) أن خرج بعض الرعية فى الشوارع جماعات ينادون : « معاوية خال المؤمنين ، وخال على »[١].

كما نعلم أن أول من استن سنة سب الصحابة هذه هم الأمويون ، حيث سبوا عليًّا وأنصاره وشيعته على المنابر . كما نعلم كذلك أن من فرق الشيعة فرقة تسمى «الرافضة » ، وأن البعض يعلل تسميتها بهذا الاسم ، لأنها ترفض الاعتراف بأحقية أبى بكر وعمر وعثمان فى الخلافة ، وأحقيتهم فى التقدم على أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى هذا المقام . وهكذا نجد أن الشذوذ الذى ننظر به إلى مرسوم الحاكم بأمر الله هذا ، والاستغراب الذى نستقبله به ، إنما هما من آثار أفقنا المستنير وعصرنا الحديث . أما ذلك العصر ، فإنه لم يكن بالمستغرب فيه ، ولا بالشاذ ، أن يصدر حاكم من الحكام أمثال هذه المراسيم .

وعلى كل ، فإن هذا المرسوم قد أدى إلى إحداث تمرد شعبى ، وضجة جماهيرية ، أدت إلى إلغائه ومحو آثاره فى سنة ٣٩٧هـ (١٠٠٦م) . وعندما استمرت قلة من متعصبى الشيعة فى ممارسة هذا العمل ، حدث تحرك جماهيرى، وقامت فتنة فى سنة ٤٠٣ هـ (سنة ١٠١٢م) ، وتظاهر الناس أمام قصر الحاكم

(١) اتعاظ الحنفا : ص ١٣١ . وهم يشيرون إلى أن لمعاوية أختًا تزوجت الرسول وصارت أمًّا للمؤمنين ، فهو إذن خال للمؤمنين ، وفيهم على بن أبى طالب ! !

بأمر الله . فاستجاب لمطلبهم . ولم يكتف هذه المرة بتحريم سب السلف من الصحابة ، بل وأصدر مرسومًا يطلب من الناس الترحم عليهم [1] !

كما أصدر الحاكم فى سنة ٣٩٥هـ بعض المراسيم ، التى انطلق فى إصدارها من فوق أرضية الغلو للتشيع ، والتى وإن أضحكت كل الذين قرءوا عنها فى كتب التاريخ ، إلا أنها معروفة الدوافع ، وإن اتصفت هذه الدوافع بالحدة والنزق والبعد عن الموضوعية إلى حد كبير . فطلب تحريم أكل « الملوخية » ، لأنها كانت محبوبة لمعاوية بن أبى سفيان ! و « الجرجير» ، لأنه كان أثيرًا ومنسوبًا إلى السيدة عائشة ! ، و « المتوكلية » ، التى كانت تنسب للخليفة السلفى المحافظ المتوكل العباسى !!

المراسيم العامة :

أما تلك المراسيم التى بدأ الحاكم فى إصدارها فى سنة ٣٩٥هـ ، والتى لم تكن موجهة إلى الذميين ولا إلى المسلمين السلفيين ، وإنما كانت شاملة لكل الرعايا والمواطنين ، وبعيدة عن قضايا العقيدة والطائفية ، فإنها كثيرة ومتعددة ، كما أنها جميعها منطقية ومفهومة . بل إنها لا تعدو أن تكون محاولات إصلاحية أراد الحاكم بها إنقاذ المجتمع الذى أخذ الترف والبذخ والتحلل بخناقه . ونحن نعتقد أنه لو كانت أساليب العصر قد أسعفت الحاكم بأمر الله بوسائل للإصلاح أكثر لينًا ورفقًا ، وأشد فاعلية وجاذبية ، لما انتهت الخلافة الفاطمية إلى الوقوع فريسة فى يد الجند والوزراء المستبدين بعد وفاته بنحو نصف قرن من الزمان .

فلقد أصدر عدة مراسيم تستهدف المحافظة على الصحة العامة للمجتمع والأفراد ، مثل تحريم أكل « الترمس المتعفن » و « الدلينس » - (أم الخلول) - والسمك الذى لا قشر له . كما أمر بقتل الكلاب الضالة ، والتى لا تستخدم فى الصيد أو الحراسة .

---

(١) الحاكم بأمر الله : ص ١٤٦ .

كما أصدر عدة مراسيم تستهدف المحافظة على الأخلاق ، ومعالجة موجات الانحلال التى بدأت تشيع بسبب الترف فى الأوساط الغنية ، أو تنتشر بسبب المجاعات فى أوساط الفقراء . فحرم عمل « الفقاع » وبيعه ، وكان من مسكرات ذلك العصر ، كما كان شربه مكروهًا من الإمام على بن أبى طالب . حتى إذا كان شهر ربيع الأول سنة ٣٩٩هـ (سنة ١٠٠٨م) ، أصدر مرسومًا بمنع عمل «النبيذ والمزر » . ولقد كان الحاكم عدوًّا لكل أنواع المسكرات ، ولقد جاء فى سجل أصدره بتحريم المسكرات فى سنة ٤٠٠ هـ (سنة ١٠٠٩م) أن « المسكر هو مجمع السيئات ، والقائد إلى قبائح الأفعال والسوءات » .

ومما يدل على أن المراسيم ، التى أصدرها الحاكم بأمر الله لمعالجة انتشار المسكرات ، إنما كانت تستهدف العلاج للمجتمع ، لا العنت والإرهاق للأفراد ، وأن غاياتها وأهدافها كانت فى غاية الوضوح ، أنه قد حدث عندما حرم النبيذ وأمر بإتلافه ، أن تقدم إلى قاضى القضاة تاجر أتلفت بضاعته من الزبيب والعسل ، وقال : إن بضاعته كانت لصنع الحلاوة لا الخمر ، وطالب الحاكم بالتعويض ، وقيمته ألف دينار ، فقبل الحاكم الخصومة ، وطلب اليمين من التاجر ، فحلف ، فحكم له بماله ، ودفعه له الحاكم [1].

ومما يؤكد أن الحاكم إنما كان يواجه موجة من التحلل الخلقى فى المجتمع القاهرى فى ذلك الحين ، ذلك المرسوم الذى أصدره فى سنة ٤٠١ هـ (سنة ١٠١٠م) ، والذى يمنع اللهو والغناء ، وخاصة بالنسبة للنساء ، والذى يحرم الاجتماعات الماجنة التى كانت تعقد فى الخلاء بالصحراء . وعند ذلك ، هوجمت أماكن البغاء بشدة ، وأزيلت دورهم وأوكارهم ، وطهرت منهم أحياء المدينة ، وكانوا ينبثون فى معظم جنباتها .

---

(١) المصدر السابق : ص ١٥٩ (نقلاً عن مخطوط كنسى عنوانه : سير البيعة المقدسة) .

كما سبق أن حرم على الناس دخول الحمام إلا بمئزر يستر بعض عوراتهم ، وحرم على غير الباعة والمشترين للأرقاء دخول أسواقهم ، حتى يمنع العابثين من تمضية الوقت فى التمتع بالجوارى بحجة الشراء . كما طلب من تجار الرقيق عدم الجمع بين الغلمان والإماء فى مكان واحد ، وأن يفرد لكل منهم يوم خاص بالبيع والشراء .

الحاكم والنساء :

أما قصة مراسيم الحاكم بأمر الله مع نساء القاهرة ، ومنعه إياهن من الخروج من البيوت ، وطلبه إلى صانعى أحذيتهن عدم صنع شىء منها ، فإنها قضية ذات صلة وثيقة بذلك المستوى من التحلل الخلقى الذى ساد القاهرة فى ذلك الحين ، وبكثرة بائعات الهوى اللاتى انتشرت بضاعتهن فى معظم جنبات العاصمة . ولقد بدأ الحاكم فى سنة ٣٩٥هـ ، بمرسوم يحرم تبرج النساء وكشف وجوههن فى الطرقات العامة أو خلف الجنائز . ولما لم يكن ذلك كافيًا فى صد التيار المنحل يومها ، فلقد أصدر مرسومًا فى سنة ٤٠٢ هـ (سنة ١٠١١م) يمنع النساء من زيارة المقابر ، ـ (وهى عادة أدخلها الفاطميون فى مصر ، وليست من الإسلام فى شىء) ـ ، والاستحمام فى الحمامات العامة ، والركوب مع الرجال فى الحفلات العامة على شاطىء النيل . ولما لم ينجح ذلك كذلك فى بلوغ الغاية المرجوة ، أصدر فى شعبان سنة ٤٠٤ هـ (سنة ١٠١٤م) مرسومًا يحظر على النساء مغادرة دورهن . واستثنى من ذلك من لهن مصلحة حيوية فى الخروج ، مثل المتظلمات للشرع ، ومن لهن شكايات ، والذاهبات لأداء فريضة الحج ، والمسافرات لظروف قاهرة ، والجوارى الذاهبات إلى سوق الرقيق ، والقابلات ، وغاسلات الموتى ، والأرامل اللاتى يتعيشن من بيع الغزل ، وأمثالهن . وأمر أن يكون خروجهن برقاع (بطاقات) يصرفها لهن مدير الشرطة [١]!

---

(١) راجع فى هذه المراسيم الحاكم بأمر الله : ص ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٦ .

وحتى نستطيع أن نطمئن تمامًا ، ويطمئن معنا الذين تراودهم الشكوك حول أهداف الحاكم بأمر الله من هذه الحملة ، التى استهدفت النساء الماجنات ، والتى أدت إلى منع خروج النساء إلا للضرورات القصوى ، وحتى نتأكد من أن الغاية الأخلاقية ومحاربة الفساد والتحلل الخلقى إنما كانتاهما القصد من كل ذلك ، فإننا نسوق هنا رواية المؤرخ السلفى ابن كثير ، الذى يتحدث كيف أن الحاكم بأمر الله قد « جهز نساء عجائز يستعلمن أحوال النساء لمن يعشقن أو يعشقهن بأسمائهن وأسماء من يتعرض لهن ، فمن وجد منهن كذلك أطفأها وأهلكها . . وغرق خلق من الرجال والنساء والصبيان ممن يطلع على فسقهم . فضاق الحال ، واشتد على النساء وعلى الفساق ذلك ، ولم يتمكن أحد منهن أن يصل إلى أحد إلا نادرًا ، حتى إن امرأة كانت عاشقة لرجل عشقًا قويًا كادت أن تهلك بسببه ، لما حيل بينها وبينه ، فوقفت لقاضى القضاة ، وهو « مالك بن سعد الفارقى » وحلفته بحق الحاكم لما وقف لها واستمع كلامها . فرحمها فوقف لها ، فبكت إليه بكاء شديدًا ، مكرًا وحيلة وخداعًا ، وقالت له : أيها القاضى ! إن لى أخًا ليس لى غيره ، وهو فى السياق ، وإنى أسألك بحق الحاكم عليك لما أوصلتنى إلى منزله لأنظر إليه قبل أن يفارق الدنيا ، وأجرك على الله . فرقَّ لها القاضى رقة شديدة ، وأمر رجلين كانا معه يكونان معها حتى يبلغاها إلى المنزل الذى تريده . فأغلقت بابها ، وأعطت المفتاح لجارتها ، وذهبت معهما حتى وصلت إلى منزل معشوقها » . وعندما حضر زوجها ، وعلم القصة ، ذهب إلى القاضى وأخبره أن امرأته ذهبت إلى معشوقها ، لأنه ليس لها أخ . وهدد القاضى برفع الأمر إلى الحاكم . فذهب القاضى إلى الحاكم ، وبكى ، وأخبره الخبر ، فأمر بإحضارهما على حالهما ، هى ومعشوقها ، فوجدا « متعانقين سكارى » ، فأُحرقت المرأة ، وضُرب الرجل حتى هلك[1] !

---

(١) البداية والنهاية : جـ ١١ ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

الإصلاحات الاقتصادية :

فـإذا مـا جاءت سنـة ٣٩٧ هـــ (سنـة ١٠٠٦م) ، واضطربـت الأحـوال الاقتصادية ، بسبب ذلك الاضطراب الذى أصـاب نقد البلاد ، حيث بلغ سعر الدينار أربعة وثلاثين درهمًا بدلاً مـن ستة وعشرين درهمًا ، « وارتفع السعر ، وزاد اضطراب الناس ، وتوقفت الأحوال » ، إذا بالحاكم يجرى من الإصلاحات النقدية ما يحاول به تخفيف حدة هذا الاضطراب .

ولكن عـام ٣٩٨هـ ـ (سنـة ١٠٠٧م) ، يأتـى بما هو أشد وأفـدح ، فتستمر الشـدة بسبب نقصـان مـاء النيل ، حتـى « عظـم الأمـر ، وكظ النـاس الجوع ، فاجتمعوا بين القصرين ، واستغاثوا بالحاكم فى أن ينظر لهم ، وسألوه أن إلا يهمل أمرهم . فركب حماره ، وخرج من باب البحر ، ووقف وقال : أنا ماض إلى جامع راشده ـ (جنوبى الفسطاط) ـ فأقسم بالله لئن عدت فوجدت فى الطريق موضعًا يطؤه حمارى مكشـوفًا مـن الغلة لأضربـنَّ رقبة كـل من يقـال لى : إن عنده شيئـًا منها ، ولأحرقـن داره وأنهبنَّ ماله ! ثم تـوجه وتأخر إلى آخر النهـار ، فما بقى أحد مـن أهـل مصر والقاهـرة وعنـده غلـة حتى حملهـا مـن بيتـه أو منزلـه وشـونها فى الطرقات . وبلغت أجرة الحمار فى النقلة الواحدة دينارًا ! . فامتلأت عيون الناس ، وشبعت نفـوسهم . وأمـر الحاكم بما يحتاج إليـه فى كل يـوم ، ففرضـه على أرباب الغلات بالنسيئـة ـ (الأجل) ـ وخيّرهـم فى أن يبيعوا بالسعر الـذى يقرره ، بما فيه من الفائدة المحتملة لهم ، وبين أن يمتنعوا فيختم على غلاتهم ولا يمكنهم من بيع شىء منها ، إلى حين دخول الغلة الجديدة ، فاستجابوا لقوله وأطاعوه أمره »[١].

وإذا كنا نُعْجَـب بهذا الحزم الذى استخدمـه الحاكم بأمر الله مـع الذين كـانوا يخفون الغـلال ويحتكرون أقوات الشعـب ، بينما المجاعـة والغلاء يأخـذان بخناق الجماهير ، وإذا كنـا نلمـح فى رواية المقـريـزى هـذه حقيقـة هـامة ، مـؤداهـا أن

---

(١) إغاثة الأمة بكشف الغمة : ص ١٧ ، ١٨ .

المجاعات التى شهدتها مصر ، لم يكن مرجعها فقط نقص النيل وقلة مياهه ، وإنما كان مردها كذلك سوء توزيع الثروة ، الذى يجعل المجاعة من نصيب الأغلبية ، والغلال التى زحمت طريق الحاكم وغطت أرضه ، والتى ظهرت فى ساعات قليلة ، من نصيب القلة المترفة ـ إذا كنا نعجب بهذا الحزم الذى عالج به الحاكم بأمر الله هذه المحنة ، فإن إعجابنا به يزداد عندما نعلم أنه لم يكن حازمًا فقط مع هؤلاء المحتكرين من أهل الغنى واليسار ، وإنما كان حازمًا كذلك مع أهله وذويه ، بل ومع نفسه أيضًا .

● ففى سنة ٣٩٨ هـ (سنة ١٠٠٧م) ، أبطل المكوس والمؤن التى كانت تؤخذ من المسافرين عن الغلال والأرز . وحدد الأسعار ، ومنع خزن ما يزيد على الحاجة من الغلال .

● وفى سنة ٣٩٩ هـ (سنة ١٠٠٨م) ، صادر أموال أهله (زوجته ، وأمه ، وأخته ، وعماته ، وخواصه وجواريه) ، وسائر إقطاعاتهن وأموالهن بمصر والقاهرة ، وكانت جملة عظيمة . ثم عاد وعدل عن هذه المصادرة فيما بعد . ولعل عدوله عنها قد كان مرتبطًا بانفراج الشدة التى تعرض لها الناس .

● وفى سنة ٤٠٠ هـ (سنة ١٠٠٩م) ، أبطل ما كان يؤخذ على أيدى القضاة من « الخُمُر » و«الفطرة» و«النجوى» ، وهى ضرائب كانت تختص بها مجتمعات الفاطميين .

● وفى سنة ٤٠٣ هـ (سنة ١٠١٢م) ، وزع الحاكم من أمواله الخاصة على الناس ، كما أسقط عن الناس مكوس الحسبة . وأصدر مرسومًا يحرم تقبيل الأرض بين يديه ، أو تقبيل ركابه أو يده ، أو الانحناء لمخلوق ، باعتبارها بدعة رومية ، والاكتفاء « بالسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » ، وألا يصلى عليه فى المكاتبات ، بل يدعى له بما تيسر ! .

● وفى المحرم سنة ٤٠٤ هـ (سنة ١٠١٣م) ، أعتق الحاكم كل رقيقه ، بالقاهرة وخارجها ، ووهبهم كل ما كانوا يملكونه زمن رقهم ! كما رفع المكوس من

جهـات كثيرة ، وأبطـل مكـوس الـرطب ودار الصـابـون ، وكـان مبلـغ الأخير ٠٠٠, ١٦ دينار [١]. حتى لقـد قال عنه الأنطاكـى إنه « أظهر من العـدل ما لم يسمع به ، . . ولم تمتـد يده قط إلى أخذ مـال من أحد . . ولقد قتـل من رؤساء دولته وأهل مملكته ممن لهم من الأموال العظيمة ما لا يقع عليه الإحصاء لكثرته ، فلم يتعرض لأخذ مال أحد منهم ، لا سيما من كان له وارث ، ومن لا وارث لهم كانت تركتهـم تستوهب منه فيهبها على الأكثر . وأسقط جميع الرسوم والمكوس التـى جـرت العادة بـأخـذهـا ، وتقـدم إلى كـل من أخـذ منـه شـىء . . بغير واجب . . فى أيامه وأيام أبيه وجده أن يطلق ما قبض منه » [٢] . كما أنشأ الحاكم ديوانًـا سماه « الديـوان المفرد » تودع فيـه لحساب الشعـب الأموال المصـادرة من تركات الـذين قتلهم بسبب جشعهم أو طمعهم فى السلطـان والنفوذ ، ولم يكن شىء مـن أموالهم هذه يـذهب إلى حسابـه الخاص ، ففارق صنيعه هـذا صنيع الحكام الذين سبقوه أو عاصروه أو جاءوا من بعده ! .

---

(١) الحاكم بأمر الله : ص ١٣٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٥٨ .



الفصل السابع

عن المجاعات والحروب والمظالم الاجتماعية

● دراسة عن مصر الشعب والأكثرية والكادحين . . وآثار المظالم الاجتماعية ، والمجاعات ، والحروب على حياة الناس والمجتمع فى ذلك التاريخ . .

الوجه الآخر للعملة

على أن هذا الغنى والترف والبذخ ، الذى سبق حديثنا عنه ، والذى أشرنا إلى أنه كان قسمة بارزة وملحوظة ، من قسمات الحياة فى مصر الفاطمية ، لم يكن من نصيب الجميع ولا هو بالذى كان مبذولاً لجميع الناس . بل إن الشدائد والمحن ، وسوء التنظيم والإدارة ، والظلم الاجتماعى قد جعل من كل ذلك وقفًا وحكرًا على القلة الغنية فى المجتمع ، كما جعل الفقر والفاقة والبؤس الشديد من نصيب الأغلبية الساحقة من المواطنين .

ولقد لمس مؤرخنا الفذ المقريزى هذه الحقيقة ، عندما تحدث عن المجتمع المصرى ، فقسمه إلى طبقات وفئات سبعة هى :

١ ـ أهل الدولة ، وهم الذين يتولون السلطة والسلطان ، وبيدهم مقاليد الأمور فيها ، مدنيين كانوا أم من كبار العسكريين .

٢ ـ أهل اليسار والغنى من التجار والملاك وأولى النعمة من أهل الرفاهية .

٣ ـ المشتغلون بالأعمال التجارية المتوسطة من الباعة ومتوسطى الحال من التجار ، وهم الذين يسمون بأصحاب البَزّ والبَزَازين . ويلحق بهم الحرفيون المالكون لأدوات إنتاجهم ، الذين يسمون بأصحاب المعايش ، وكانوا يسمون كذلك بالسوقة ، نسبة إلى الأسواق وإلى قيامهم بصنع أدوات المعيشة وبيعها .

٤ ـ الفلاحون ، « أهل الفلح » وهم أهل الزراعات والحرث ، سكان القرى والريف .

٥ ـ الفقراء ، ومعدود فيهم أغلب الفقهاء وطلاب العلم وكثير من الجنود [١].

٦ ـ الصناع ، أصحاب المهن الذين لا يملكون سوى قوة عملهم يؤجرونها للآخرين .

٧ ـ ذوو الحاجة والمسكنة ، وهم السؤّال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم [٢].

ثم يحدد المقريزى موقف كل طبقة أو فئة من هذه الفئات والطبقات من الشدائد التى كانت تمر بالمجتمع ، وموقف هذه الشدائد من هذه الطبقات ، فيقول : إنه فى المحن والشدائد يستفيد الصنفان الأول والثانى . أما الثالث ، فإنه «ينفق ما اكتسبه فيما لا بد له منه من الكلف ، وحسبه ألا يستدين لبقية حاجته ، ويقنع كما قال الأول :

عَلَى أنَّنى راضٍ بأنْ أَحْمِلَ الهَوَى وأخلُصَ منه لا علىَّ ولا ليا

أما بقية الأصناف ، فهم بين فانٍ ، وميت ، ومُشتهٍ للموت فى مثل هذه الظروف [٣] ! !

فإذا كان أهل الدولة ، وأهل اليسار ، هم المستفيدين الحقيقيين من الشدائد والمجاعات التى كانت تمر بالبلاد ، وإذا أخرجنا من حسابنا متوسطى الحال من التجار والباعة والحرفيين ، الذين تُحقِّقُ لهم دخولهم الاكتفاء الذاتى ، فإننا سنجد الأغلبية الساحقة من المواطنين أمام هذه الشدائد : ما بين « فان وميت ، ومشته للموت فى مثل هذه الظروف » ! ! فإذا علمنا أن هذه الشدائد قد كانت طابع ذلك

---

(١) واصطلاح الفقراء فى الفقه الإسلامى ، يطلق على الذين لا يملكون رصيدًا يكفى احتياجاتهم من الضروريات عامًا كاملاً .

(٢) والمساكين ، اصطلاح إسلامى يطلق على المُعدِمين الذين لا يملكون شيئًا .

(٣) إغاثة الأمة بكشف الغمة : ص ٧٢ ـ ٧٥ .

العصر ، وأنها كادت أن تكون ملازمة للناس ملازمة الظل فى تلك الحقبة من حقب التاريخ ،أدركنا عمق تلك المأساة التى عاشها الإنسان المصرى العادى والبسيط فى ذلك الزمان .

أما العناصر الأساسية ، التى عاشها الإنسان المصرى فى هذه الحقبة ، فإننا نستطيع إجمالها تحت عناوين رئيسية ، شكّلت طابع الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وأثّرت فيها أبلغ التأثير ، وهى :

١ ـ النظام الإقطاعى فى الاستثمار الزراعى .

٢ ـ الضرائب الكثيرة التى كانت تُجبَى من المواطنين .

٣ ـ المجاعات التى كادت أن تلازم الناس يومئذ .

٤ ـ الحروب والأخطار الخارجية ، وما كانت تستنزفه من إمكانات وثروات .

الإقطاع الزراعى

وإذا كنا قد تحدثنا ، فيما سبق ، عن نظرية الإمامة عند الشيعة الفاطمية ، وعند الشيعة عمومًا ، وأشرنا إلى صلة موقفها فى « التفويض والحق الإلهى » للخلفاء بالميراث الفكرى الإقطاعى للأكاسرة الفرس الساسانيين ، فإننا حينما ننظر إلى النظام الاقتصادى الزراعى الذى ساد مصر زمن الفاطميين ، بل وقبلهم بكثير وبعدهم بكثير ، فإننا سنجد أنفسنا تجاه نظام إقطاعى فى الاستغلال والاستثمار ، يقوم على الريع ، ويحمل جوهر الإقطاع بمعناه الحديث ، وإن اختلف فى الشكل عن الإقطاع الذى عرفته أوربا فى العصر الوسيط [١] .

فعندما وصل المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر ، وشرع فى إجراء التغييرات الإدارية فى جهاز حكمها ، « قبضت أيدى سائر العمال والمتضمنين »، وعهد بكل

---

(١) راجع فجر اليقظة القومية : ص ٥٩ ـ ٧١ ، ١٥٣ ـ ١٦٨ .

شئون المال والاقتصاد والحسبة والجوالى - (الجزية) - والأحباس - (الأوقاف) - والمواريث ، والشرطة ، « وجميع ما ينضاف إلى ذلك وما يطوى فى مصر ، وسائر الأعمال » إلى كل من يعقوب بن يوسف وعسلوج بن الحسن . « وكتب لهم بذلك سجلاً ، وقرىء يوم الجمعة (١٦ من محرم سنة ٣٦٣ هـ (سنة ٩٧٣م) ، على منبر جامع أحمد بن طولون » . وشرعت السلطة الجديدة فى نقل تعاقدات «الالتزام» و « التضمين » إليها كطرف فى هذه العملية التى تقوم فيها بينها وبين «الملتزمين » و « الضامنين » ، هؤلاء الذين اعتادوا التوافد إلى مسجد عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط فى يوم محدد من أيام السنة لحضور « المزايدة » على «الالتزام» ، فينادى على القرى ، وتتم « المزايدة » ، ثم يرسو « العطاء » على من يرفع السعر ، فيدفع ضريبة عام مقدمًا ، ثم يحصل على « الالتزام » [1]. أما عملية الفلاحة اللازمة لهذه الأرض التى كانت تتكون منها دوائر الالتزام ، فلقد كان يقوم بها الفلاح المصرى الذى صيره نظام الالتزام « عبدًا قنًا لمن أقطع تلك الناحية ، إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق ، بل هو قِنّ ما بقى ، ومن ولد له كذلك ! »[2].

وعندما قرىء سجل تولية يعقوب بن كلس ، وعسلوج بن الحسن لأمور المال فى مصر الفاطمية ، « جلسا عند هذا اليوم ، (لا فى مسجد عمرو بن العاص هذه المرة) ، ولكن فى دار الإمارة فى جامع أحمد بن طولون [3]، للنداء على الضياع وسائر وجوه الأموال ، وحضر الناس « للقبالات » . وإمعانًا فى تأكيد استمرارية النظام الاقتصادى نفسه بمصر ، وإن تغيرت «الدولة» ، طلبت السلطة الجديدة

---

(١) المرجع السابق : ص ١٥٦ .

(٢) خطط المقريزى : جـ١ ص ٨٥ .

(٣) كانت دار الإمارة هذه ، بجوار مسجد ابن طولون .

من الملتزمين والمتقبلين والضامنين « البقايا من الأموال مما على المالكين والمتقبلين والعمال ، واستقصيا ـ (أى ابن كلس وعسلوج) ـ فى الطلب »[1] .

ولقد كان نظام الالتزام ، وإن لم يعط الملتزم حق الملكية القانونية المطلقة للأرض ، وإن اقتصر حقه هذا على ما يمكن أن نسميه « ملكية المنفعة » ، إلا أن استمرارية هذا الحق الذى بدأ « لمدة عام ، ثم تطوّر الأمر فأصبح الحصول عليه لأكثر من عام ، ثم أصبح « الالتزام » حقًّا للملتزم القائم بواجباته مدى الحياة ، بل ولورثته من بعده إن هم طلبوا ذلك وقاموا بما يفرضه عليهم من واجبات »[2].

لقد كان هذا النظام بتطوره هذا الذى حول « ملكية المنفعة » إلى ما يشبه «الملكية المطلقة » ، وكذلك بالعلاقات الإقطاعية الصرفة التى كانت قائمة بين الملتزم وبين الفلاح القِنّ الذى يزرع الأرض نظير القوت الضرورى ، والذى ما كان يستطيع أن يتحرر من قيد الحياة فى الدائرة التى ولد فيها ، وكذلك بالريع والفائض العائد لخزانة الملتزم ، والذى هو حصيلة الفرق بين الضمان والضريبة اللتين يدفعهما الملتزم ، والقوت الضرورى الذى يمنحه الملتزم للأقنان ـــ لقد كان نظام الالتزام هذا ، وهو القسمة العامة لنظام الاستغلال الزراعى فى مصر ، نظامًا إقطاعيًا لحمًا ودمًا ، تكثفت فيه كل جوهريات النظام الإقطاعى ، بصرف النظر عن الفروق الشكلية التى تمايز ما بينه وبين إقطاعيات أُمراء الإقطاع الأوربيين فى العصر الوسيط .

بل إننا نجد ، أحيانًا ، فى النتف القليلة التى خلفها لنا المؤرخون المصريون عن مظاهر هذا النظام الاقتصادى ومراسيم وجوهه وأعيانه ، ما يقرب الشقة بينه وبين ما عرفناه عن نظام أُمراء الإقطاع ، من حيث التزام الملتزمين بالحرب ونفقاتها عن المناطق التى ضمنوا خراجها ، وكذلك من حيث المظاهر التى كانوا يحيطون

---

(١) اتعاظ الحنفا : ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٢) فجر اليقظة القومية : ص ١٥٦ .

بها أنفسهم . فنحن نقرأ للمقريزى ، أنه عندما « ضمن أبو عبد الله الحسن بن إبراهيم الرسى ، وأبو طاهر بن قيامة خراج الأشمونين وحربها ، وخلع عليهما ، سارا بالبنود والطبول . وضمن أبو الحسن على بن عمر العداسى كورة بوصير وأعمالها ، وخلع عليه وحمل ، وسار بالبنود والطبول »[1].

وعندما كان « الضامن أو المتقبل أو الملتزم » يحصل على امتياز ضمان «الخراج»، وكذلك على « الأعمال » ، وأيضًا على « الحرب » ، بالنسبة لدائرة التزامه أو « قبالته » ، فإنه كان يتحول إلى حاكم تجتمع فى يديه كل السلطات الاقتصادية والإدارية والحربية ، وحينئذ يكون قد اقترب كثيرًا من صورة أمير الإقطاع الأوربى ، وإن ظل نهر النيل ـ بما فرضه من مركزية للدولة المصرية ضاربة بجذورها فى أعماق التاريخ ـ عقبة أمام تحول دوائر الالتزام هذه إلى وحدات إدارية وسياسية مستقلة ، كما حدث فى أوربا الإقطاعية عندما ساد فيها هذا النظام .

الضرائب والمكوس

ولم تكن الدنانير المعزية الذهبية ، التى تحولت إلى سبائك على هيئة «الرحى» ، والتى حملت على إبل « زناته » فى موكب المعز لدين الله الفاطمى القادم إلى مصر بعد الفتح بأربع سنوات ، لم تكن هذه الثروة بمانعة المعز ، ومن جاء بعده من خلفاء أسرته ، من الغلو فى جباية الضرائب وفرض المكوس وتحصيلها ، والقسوة فى ذلك إلى الحد الذى أرهق الشعب بطبقاته الفقيرة ، وحوّل حياته إلى سلسلة شبه متصلة من الأزمات والمجاعات والاختناقات .

ونحن لا يمكن أن تخدعنا كلمات المعز ، ولا كلمات قائده جوهر الصقلى من قبله ، التى صورت أهداف الفتح على أنها منحصرة فى « الحج والجهاد » ، لأننا نجد الوقائع المادية الصارخة تكذب ذلك ، كما نجد المقريزى ، وهو مؤرخ غير

---

(١) اتعاظ الحنفا : ص ٢١٧ .

متهم بمعاداة الدولة ، يتحدث إلينا عن الشدة التى استنها المعز فى جمع الخراج ، وكيف « اشتد الاستخراج [1]، وأكد المعز فيه ليرد ما أنفقه من أمواله على مصر ، لأنه قدم مصر يظن أن الأموال مجتمعة ، فوجدها قد فرقتها مؤن مصر وكثرة عساكرها ! » [2].

بل إن علينا ، ونحن نطالع أرقام الضرائب والمكوس التى حصلها المعز ونظامه الجديد من المواطنين المصريين ، أن ننتبه إلى ذلك التعديل الذى حدث فى العملة ، والفرق بين « الدينار المعزى » الجديد و « الدينار الراضى » الذى كان معمولاً به فى مصر من قبل ، وكيف « امتنع يعقوب (بن كلس) وعسلوج (بن الحسن) أن يأخذا فى الاستخراج إلا « دينارًا معزيًا » ، فاتضع « الدينار الراضى » وانحط ، ونقص من صرفه أكثر من ربع دينار » (٣) !

وفى شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٣ هـ (سنة ٩٧٣ م) ، طلبت السلطة الجديدة من أصحاب الأوقاف ونظار الأحباس حجج هذه الأوقاف وشرائطها ، ليتم الحساب على أساسها منعًا من التهرب والتهريب . وبلغت قسوة التحصيل وكثرة الأموال المستخرجة حدًّا جعل المقريزى يقول : إن « هذا لم يسمع بمثله قط فى بلد»! وهو يقصد فى بلد غير فاطمى ، أو فى بلد من قبل ذلك ، لأنه يستطرد فيذكر أن مثل ذلك قد حدث بعد عهد المعز فى عصر العزيز !

ولعل نظرة على الأرقام التى جباها يعقوب بن كلس والتى ذكرها المقريزى تستطيع أن تجسد لنا الصورة التى بلغها هذا الأمر إلى حد كبير :

- ففى يوم واحد ، بلغ المستخرج أكثر من خمسين ألف دينار معزية ، جمعت دون أن يعطى جامعوها « براءة ولا حوالة » للذين دفعوها !

---

(١) ولست أدرى هل قصد المقريزى إلى استخدام كلمة « الاستخراج» بدلاً من « الخراج» ، ليصور حقيقة الحال ، أم جاءت هكذا عفوًا لتجيد التصوير ، إذ من المعروف أن «الاستخراج» كلمة توحى لنا بأن الأمر كان « انتزاعًا » للخراج من الناس ! !

(٢) اتعاظ الحنفا : ص ١٤٦ .

(٣) المصدر السابق : ص ١٤٦ .

● وفى يوم ثان ، بلغ المستخرج ١٢٠,٠٠٠ دينار معزية .

● وفى يـوم ثالـث ، بلغ المستخـرج من ثـلاث مـدن مصرية فقـط هى « تنيـس » و«دمياط » و« الأشمونين » أكثر من ٢٢٠,٠٠٠ دينار معزية [١].

● ولقد بلغت الضرائب التى تدفعها مدينة « مصر » وحدها فى اليوم الواحد ما بين ٢٦ و ٦٢ ألف جنيه ، وذلك حسب حالتها المالية [٢].

أما المقارنة ، التـى أشار إليها المقريزى ما بين أرقام الاستخـراج اليومى فى زمن المعز وزمـن العزيـز ، فإنها تضع أيـدينا على رقـم يورده ، ويقـول : إن « خير بن القاسم ، وعلى بن عمر العداس ، وعبد الله بن خلف المرصدى » قد جمعوا للعزيز فى ثلاثـة أيام ٢٢٠,٠٠٠ دينـار عزيزيـة ، وكان ذلك فى سنـة ٣٧٤ هـــ (سنة ٩٨٤م) [٣]!!

فـإذا جئنـا إلى عصر الخليفـة المستنصر ، وجـدنـا خـراج مصر قـد بلـغ ٢,٨٠٠,٠٠٠ دينـار سنة ٤٦٦ هــ (سنـة ١٠٧٣م) ، وفى عهد وزيـره ذى السلطـات المطلقة بـدر الجمالى ٣,١٠٠,٠٠٠ دينـار فى سنـة ٤٧٨ هــ (سنـة ١٠٨٥م)، ليقفز فى عهد المستنصر كـذلك على يد وزيره الأفضـل بن بدر الجمالى إلى ٥,٠٠٠,٠٠٠ دينـار ، وذلـك غير مـا جمع عينًا مـن غـلالها التـى بلغـت ١,٠٠٠,٠٠٠ أردب [٤] .

فإذا أضفنا إلى ذلـك دخل السلطة الفاطميـة من المكوس التى كـانت تحصلها على التجارة الواردة مـن خارج البلاد ، وكانت تبلغ ٢٠٪ مـن قيمتها ، والصادرة إلى خارج البلاد ، وهـى المكوس التى كانت تجمع فى ثغـور « دمياط » و « تنيس »

---

(١) المصدر السابق : ص ١٤٧ .

(٢) سيرة القاهرة : ص ١٣١ .

(٣) اتعاظ الحنفا : ص ١٤٧ .

(٤) الحاكم بأمر الله : ص ٣٤٦ . وخطط المقريزى : جـ ١ ، ص ٨٣ .

و« رشيد » و « الإسكندرية » و « عيذاب » و « أسوان » ، واضعين فى اعتبارنا أهمية مصر فى ذلك الحين ، وقبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وخلال فترات كثيرة أُغلقت فيها طرق الشام أمام التجارة الدولية بسبب من غزوات القرامطة أو حروب الصليبيين ، مما جعل مصر هى الطريق شبه الوحيد لهذه التجارة العالمية ، وإذا أضفنا إلى ذلك أيضًا المكوس التى كانت تؤخذ على التجارة الداخلية ـ (الترانزيت) ـ داخل الوطن الواحد ـ مصر ـ بسبب من التجزئة النسبية التى أحدثها نظام الالتزام ، وضعف السلطة المركزية فى كثير من الفترات . . كذلك ، إذا أضفنا دخل هذه السلطة من الجزية التى كانت ضريبة أمن وجندية يدفعها الذميون ، وكذلك الدخل الناتج عن فروق العملة والنقد (فرق السّكة) ، والضرائب الأخرى التى كانت تجبى من الناس ، وخاصة من « المؤمنين » المريدين للتشيع والسالكين فى الاعتقاد مسلك الفاطميين ، والتى كانت تعرف إحداها «بالنجوى » وثانيتها « بالفطرة » ، ضرائب أشبه بالاشتراكات الحزبية ، لأنها «صارت فرضًا واجبًا على كل مؤمن العمل به ، ومن تركه كمن ترك فرضًا من فرائض الصلاة والصوم والحج والجهاد » ، ولأنها « كانت من الفروض اللازمة للإمام على المؤمنين ، وبها قوام الدين . . وإنه لا يسع أحدا من المؤمنين تأخيرها ، ولا يحل له إغفالها »[1].

وإذا أضفنا إلى كل ما تقدم دخل السلطة الفاطمية ، والخليفة بالذات ، من التجارة الخاصة التى كانت شبه احتكار لهم ، ومن الحوانيت والدكاكين التى كانت العاصمة تمتلىء بها والتى كانت لهم ملكًا يؤجرونها للناس ، والتى بلغت عشرين ألفًا ، ومن المنازل التى كانت لهم بالعاصمة يؤجرونها للناس ، والتى بلغت ثمانية آلاف ، حسب روايات ناصرى خسرو ـ أدركنا عظمة تلك الروافد المالية التى كانت تمد خزائن الدولة بالأموال ، وكثرتها ، وأدركنا كذلك فعالية هذا النظام الضرائبى وقدرته على أن يكون مصدرًا من مصادر الشقاء وعاملاً من عوامل المأساة التى عاشها الإنسان المصرى فى ذلك التاريخ .

---

(١) الحاكم بأمر الله : ص ٣٤٦ ، ١٤٩ . والسجلات المستنصرية : ص ٨٤ ، ٨٥ .

أما كيف كانت هذه الأموال تنفق عندما تصل إلى خزائن الخلفاء والأغنياء ، فإن حديثنا الذى سبق عن قسمة الغنى والبذخ والترف الذى شهدته مصر والقاهرة ، إنما يمثل الجواب عن هذا السؤال . ويكفى أن نقرأ أرقام نموذج واحد، ساقه لنا المقريزى لجانب من « ميزانية الدولة » الخاص بالمنصرف فى أحد أعوام حكم المعز لدين الله ، لنجده يقول : إنها كانت على هذا النحو :

المبلغ بالدينار	الغرض المعتمد لأجله
٢٠٠,٠٠٠	وقف على « معلول ومنكسر ، على موتى وهراب ومفقود » . (وهو خاص بعلاج الخاصة ، وتجهيز موتاهم، وأعمال خاصة بالأمن) .
٣٠٠,٠٠٠	« للرجال (رجال الدولة) عن واجباتهم وكساويهم » .
١٠٠,٠٠٠	« ثمن غلة للقصور » الخاصة بالخليفة (ولقد بلغ سكان القصر ، عندما زار ناصرى خسرو مصر ، ٣٠,٠٠٠ نسمة) .
٢٠٠,٠٠٠	« نفقات القصور » .
١٠٠,٠٠٠	« عن عمائر ـ (أى سفن) ـ وما يقام للضيوف الواصلين من الملوك وغيرهم » .
١٠٠,٠٠٠	لبيت المال المصون (وهو المبلغ الوحيد الذى يمكن أن ينفق بعضه فى المصالح العامة من بين ١,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وهى مجموع هذه الميزانية الجزئية التى ساق المقريزى طرفًا منها [١].

(١) خطط المقريزى : جـ ١ ، ص ٨٢ .

الحــروب

ولم تكن الحروب التـى خاضها الفـاطميون ، والتى سببـت هى الأخرى نـزيفًا اقتصاديًـا لثروات الشعب والجماهير ، وسـاهمت فى صنع المأساة التـى تجسدت فى سلسلة الأزمات المالية والمجاعات الغذائية ، لم تكن هذه الحروب قاصرة على ذلك الفتح الفاطمى الـذى مد حدود الدولة إلى الشام والموصـل ، أحيانًا ، وإلى اليمن وغيرهـا من أصقـاع المشرق العربـى . بل إن بعـض هذه الحروب قـد دار فى مصر نفسها ، من جانب القرامطة فى بداية العصر الفاطمى ، ومن جانب الصليبيين فى نهاية هـذا العصر . ذلك ، أن مصر كانت مطمعًـا للقرامطة ، كما كانـت مطمعًا للفاطميين . ولقـد كان للفـريقين بها دعاة وأنصار ومشـايعون ، ولم يضـع الفتح الفاطمـى الحد لأطماع القرامطـة فيها ، بل لقـد غزوها مـرتين بعد فتحهـا على يد الفاطميين .

ففى شوال سنة ٣٦٠ هـ (سنة ٩٧٠م) ، وقبل قدوم المعز إلى مصر ، تحدث النـاس بقرب وصـول جيش القـرامطـة غازيًـا للبـلاد ، فاستعـد جوهـر الصقلى للقائهـم ، « وفرق السلاح على المغاربـة والمصريين » . ويبدو أن مدينـة « تنيس » الصناعية ، كان بها مشايعون كثيرون للقرامطة ، فانتهز أهلها الفرصة ووثبوا « على واليهم ، وقتلوا جماعة ، منهم الإمام فى القبلة ! » . كما « وجدت رقاع (منشورات) فى الجامع العتيق(جامع عمرو بن العاص) فيها التحذير من جوهر »[1] . وبعد أقل من ثلاثة أشهر ، (المحرم سنة ٣٦١هــ سنة ٩٧١م) وصل جيش القرامطة إلى « الفرما » واحتلها ، وانتهـز أهل « تنيس » الفرصة مرة أخـرى ، فعصوا سلطة الفاطميين ، « وغيروا الدعوة وسَوَّدُوا» (لبسوا السَّوَاد شعار العباسيين) ، وحاربوا جيش الفاطميين .

وفى شهر ربيع الأول من العـام نفسه ، وصل القرامطة إلى أبواب القـاهرة، بل

---

(١) اتعاظ الحنفا : ص ١٢٩ .

ودخلت منهم جماعة من أحد أبواب المدينة ، والتحم القتال بينهم وبين جيش جوهر الذى انتصر عليهم [1]. وبعدما حضر المعز لدين الله إلى مصر ، حدث فى شهر جمادى الأولى سنة ٣٦٣ هـ (سنة ٩٧٣م) ، أن تحدث الناس عن غزوة ثانية لمصر حضر من أجلها الجيش القرمطى بقيادة الحسن بن أحمد القرمطى ، الذى كان يتوعد الفاطميين ، ويتحدث عن « حتمية » فتحه لمصر ، فيقول :

زعمتْ رجالُ الغربِ أنّى هِبْتُها   فدمِى إذاً ما بينهمْ مَطْلولُ
يا مصْرُ ، إنْ لم أَسْقِ أرْضَكِ مِن دَمٍ   يرْوِى ثراكِ ، فلا سَقاكِ النِّيلُ [2] !

فاستعد المعز لدين الله للقاء الحسن القرمطى وجيشه . وكما هى العادة دائماً ، حدث للمواطن العادى ما يحدث له دائماً فى مثل هذه المناسبات ، إذ « قوى الاستخراج ، ومنع الناس من الحضور إلى الديوان ، لئلا يقفوا على مبلغه » [3]!! ثم تجهز المعز فى ٣ من رجب سنة ٣٦٧ هـ (سنة ٩٧٣م) للقتال ، وكان الجيش القرمطى قد وصل إلى بلبيس ، ووزع الفاطميون السلاح على الأشراف والعرب «وجمع من جند المصريين » [4] ولم يستطع الفاطميون الانتصار على القرامطة هذه المرة إلا بالخديعة والمكر . ذلك ، لأن القرامطة كانوا ـ وهم فى طريقهم إلى مصر ـ قد تحالفوا مع « حسان بن الجراح الطائى » ، أمير العرب ببلاد الشام . فجرت مراسلات بين المعز وبين حسان هذا ، اتفق فيها على أن يخون حسان عهده مع القرامطة ، فينهزم بجيشه عندما تحتدم المعركة ، وذلك فى نظير ١٠٠,٠٠٠ دينار ذهب يدفعها له المعز. ولقد حدث بالفعل أن أرسل إليه المعز « بمائة ألف دينار فى أكياسها ، ولكن أكثرها زغل ضرب النحاس ، وألبسه ذهبًا ، وجعله فى أسفل الأكياس ، وجعل فى رءوسها الدنانير الخالصة . ولما بعثها إليه ، ركب فى أثرها فى جيشه ، فالتقى الناس ، فانهزم حسان بمن معه . فضعف جانب القرمطى ،

---

(١) المصدر السابق : ص ١٣٠ . وسيرة القاهرة : ص ١١٥ .
(٢) اتعاظ الحنفا : ص ٢٠٦ .
(٣) المصدر السابق : ص ١٤٨ .   (٤) المصدر السابق : ص ٢٠٢ .

وقوى عليه الفاطمى فكسره ! »[1] وفى العام نفسه ، استطاع الفاطميون أن ينتزعوا دمشق من يد القرامطة . وكان العداء بينهما ، برغم أصولهم الشيعية ، قد بلغ حدًّا جعل أحد دعاة القرامطة فى مدينة نابلس « يتكلم فى الفاطميين ، ويقول : لو كان معى عشرة أسهم لرميت الروم بواحد ، ورميت الفاطميين بتسعة ! »[2] .

وإذا كان القرامطة لم يقوموا بغزو مصر الفاطمية بعد هذا العام ، فإن العداء بينهما ظل قائمًا . ولقد اتخذ هذا العداء من مناطق الشام ميادين للحرب والصراع . ووجدنا فى عصر الحاكم بأمر الله زعيم القرامطة يبعث للحاكم برسائل التهديد ، والحاكم يبعث إليه بالإنذارات والوعيد[3] .

على أنه ينبغى لنا أن ندرك أن آثار هذه الحروب من الناحية الاقتصادية ، إنما كان يتعدى التدمير وزيادة الضرائب والخراج إلى إحداث الاضطرابات فى الأسعار، مما يضر بمصالح المواطنين . وفى عهد الأيوبيين ، نجد حديثًا واقعيًّا للمؤرخ العماد الذى تجهز للغزو مع صلاح الدين ، ثم ذهب إلى السوق قبل مغادرة الجيش للقاهرة ، فأغراه ارتفاع الأسعار بأن يبيع متاعه ويعدل عن الذهاب للجهاد !! وذلك ، عندما يقول : « فركبت إلى سوق العسكر للابتياع ، وقد أخذ السعر فى الارتفاع ، فقلت لغلامى : قد بدا لى ، وقد خطر الرجوع من الخطر ببالى ، فأعرض للبيع أحمالى وأثقالى ، وانتهز فرصة هذا السعر الغالى ! »[4] ثم استأذن صلاح الدين فى إعفائه من الغزو فى ذلك العام !

المجاعات

على أننا نظلم الدولة الفاطمية ، إذا نسبنا المجاعات التى أصابت البلاد إلى

---

(١) البداية والنهاية : جـ ١١ ، ص ٢٧٦ .
(٢) المصدر السابق : جـ ١١ ، ص ٢٧٧ ، ٢٨٤ .
(٣) الحاكم بأمر الله : ص ٢٩٩ .
(٤) كتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٦٩٧ .

عهدها فقط ، وإذا اعتبرنا الغلاء والاضطرابات فى الأسعار ظاهرة فاطمية . ذلك، لأن هذه النواقص فى النظام الاقتصادى المصرى ، إنما كانت عيوبًا وجراحات نابعة من طبيعية النظام الإقطاعى ، ومظهرًا من مظاهر الظلم الاجتماعى الناتج عن هذا النظام . فمنذ سنة ٣٥٢ هـ ، وقبل الفتح الفاطمى بست سنوات ، كانت البلاد تعانى من حالة غلاء شديد ، واضطراب اقتصادى استمر نحو تسع سنوات . ولقد سبقت إشارتنا إلى ذلك فى أول هذه الدراسة ، وتحدثنا حينئذ عن الدور الذى لعبته هذه المجاعة فى التمهيد للفتح الفاطمى . وعندما وصل جوهر الصقلى فى سنة ٣٥٨ هـ (سنة ٩٦٨م) أولى قضية الأسعار اهتمامه ، وحاول علاج هذه الحال ، فجمع سماسرة الغلال ، وحدد لهم سوقًا حرّم بيع الغلال فى مكان آخر سواه ، ولم يجعل لبلوغ هذه السوق سوى طريق واحد ، وصار البيع والشراء لكل قدح من القمح يتم تحت إشراف المحتسب « سليمان بن عزة » ، كما قام بضرب جماعة من الطحانين ، وأركبهم ، وطيف بهم فى طرقات العاصمة وشوارعها .

وبرغم هذه الإجراءات ، فلقد استمر الغلاء إلى سنة ٣٦٠ هـ (سنة ٩٧٠م)، مما سبب وباء وأمراضًا حصدت الكثير من الأرواح ، حتى عجز الأحياء عن دفن الأموات ، فضلاً عن تكفينهم وتجهيزهم ! وصار الناس يطرحون موتاهم فى النيل ، مما ضاعف من وطأة الوباء والأمراض والوفيات . حتى إذا كانت سنة ٣٦١ هـ (سنة ٩٧١م) ، أخذت الأسعار فى الانخفاض ، وأعطت الأرض محصولاً وفيرًا ، وهبت على الناس ريح الرخاء [١] .

ولقد عاود الوباء مصر فانتشر بها ثانية فى سنة ٣٦٣ هـ (سنة ٩٧٣م) ومات بسببه خلق كثير [٢]، ثم عاود المجىء مرة أخرى فى سنة ٣٦٨ هـ (سنة٩٧٨م) [٣].

---

(١) إغاثة الأمة بكشف الغمة : ص ١٣ ، ١٤ .

(٢) اتعاظ الحنفا : ص ٢١٥ .

(٣) المصدر السابق : ص ٢٤٦ .

ولم يسجل تاريخ المجاعات فى مصر ، الذى أحصاه وكتبه المقريزى ، محنًا جديدة فيها تبقى من أيام المعز لدين الله ، وإن كان قد سجل اضطرابات فى الأسعار بالهبوط والارتفاع ، نشأت عن انخفاض فى قيمة الدراهم فى عهد العزيز، فى سنة ٣٨٢ هـ (سنة ٩٩٢م) ، حتى هبط سعر الدراهم إلى ربع قيمتها الحقيقية ، مما أدى إلى سحب هذه الدراهم وضرب دراهم جديدة [١].

أما المجاعات ، التى شهدها عصر الحاكم بأمر الله ، فلقد سبق حديثنا عنها وعن الطريقة التى عولجت بها شرورها وآثارها عند الحديث عن القسمات الهامة والطريفة التى عرفت بها القاهرة فى ذلك الحين .

أما مجاعات عصر المستنصر ، ومن حكم بعده من خلفاء الفاطميين ، فإن حديثنا عنها سيأتى عندما نتحدث ، بعد قليل ، عن عصر انهيار هذا النظام .

على أننا نود أن نشير إلى أن الأسباب التى كانت تقف وراء حدوث هذه المجاعات ، لم تكن هى نقصان مياه النيل فحسب ، لأننا قد رأينا عندما عالجها الحاكم بأمر الله فى سنة ٣٩٨ هـ (سنة ١٠٠٧م) ، كيف أرهب التجار والموسرين حتى خرجت من مخازنهم الغلال التى غطت أرض الطرقات ، مما أثبت ويثبت أن أسباب هذه المجاعات لم تكن مياه النيل التى نقصت ، بقدر ما كانت سوء توزيع الثروة فى البلاد ، وسوء إدارة هذه البلاد ، وباختصار كل ما هو مرتبط بالنظام الإقطاعى الاستبدادى من مظالم وآفات وعيوب وثغرات .

وإذا كانت مظالم الإقطاع وعيوبه ، مضافًا إليها قسوة النظام الضرائبى وثقل أحمال الجبايات والمكوس ، وكذلك الحروب التى خاضتها الدولة فى الداخل والخارج ، هى فى مقدمة الأسباب التى ساعدت على انتشار الغلاء وحدته وتكرار دوراته ، فإن المجاعات التى شهدتها مصر إذا ما انضمت إلى هذه الأسباب

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٧٤ .

اتضحت لدينا معالم الصورة الأخرى لمصر والقاهرة فى ذلك الحين ، معالم الوجه الآخر للعملة ، وجه مصر الشعب والقاهرة الأكثرية والجماهير ، وعلمنا لمن كانت ثمار الغنى والترف والبذخ والرخاء ، وعلى من كانت آثار المظالم الإقطاعية والجبايات والغلاءات حتى أصبحوا ما « بين فان ، وميت ، ومشته للموت فى مثل هذه الظروف » ! ! كما يقول مؤرخنا المقريزى عندما وصف حال الشعب فى ذلك التاريخ .

الفصل الثامن

مصر تقاوم

● دراسة عن الهبّات والتمردات والانتفاضات التى صنعها الشعب ضد المظالم الاجتماعية ، التى شهدها فى ذلك العصر . . والإبداع الشعبى الذى تجلى فى ابتكار ألوان جديدة من المقاومة .

تمردات وانتفاضات

لا يستطيع باحث يحترم الدلالات الموضوعية والدقيقة للمصطلحات ، أن يتبسط فى الحديث فيزعم أنه قد حدثت بمصر الفاطمية ثورات شعبية ضد الحكم الفاطمى ، ولا أن الشعب قد نظم صفوفه لمقاومة المظالم الاجتماعية ، والآفات الإقطاعية والضرائبية والحربية ، التى أشرنا إلى طرف منها منذ قليل . ذلك ، لأن كتب التاريخ لا تسعفنا بالمادة التى تؤهلنا للخوض فى هذا الحديث ، حديث قيام هذه الثورات .

ونحن إذا تجاوزنا نطاق « الفولكلور » ، الذى يعتبر أصدق مرآة عبرت عن هذه القسمة من قسمات شعبنا فى هذه الظروف ، وهى المرآة التى لم تصقل بعد ، ولم يتح لها المهرة من الباحثين الذين يهتمون بهذه الحقبة من حقب تاريخنا ، إذا تجاوزنا هذا النطاق ، لا نجد فى جعبتنا سوى أحداث غير كثيرة ، لا يرقى تقييمنا لها إلى وضعها فى مستوى « الثورة » ، وإنما يقف بها عند حدود « التمرد» و«الانتفاضة » و«العصيان» .

● ففى سنة ٣٦٠ هـ (سنة ٩٧٠م) ، « وثب أهل « تنيس » على واليهم (الفاطمى) وقتلوا جماعة ، منهم الإمام ، فى القبلة » . وكان ذلك بتأييد معنوى من الأخبار التى تتحدث عن قدوم الجيش القرمطى لقتال جوهر الصقلى وإجلاء الفاطميين عن البلاد . وعلى الرغم من أن صفحات هذا التاريخ قد حفظت لنا نتفًا كثيرة تؤكد أنه قد كان لتيار القرامطة وحركتهم فى مصر أنصار وأعوان ودعاة ، فإننا نلاحظ أن مدينة « تنيس » ، وكانت مدينة صناعية ، موقعها الآن فى بحيرة المنزلة بشمال الدلتا ، كانت فى مقدمة المدن التى علا فيها

شأن هذه الدعوة ، واتخذت المواقف الإيجابيـة لصالحها ضد الفاطميين . ولعل فى معرفتنا للطبيعة اليسارية لفكر القرامطة الاجتماعى ، وللصلة الوثيقة بين لون هذا الفكـر وبين طوائف الحرفيين وتنظيماتهم فى منطقـة الخليج العـربى ، التـى شهدت قيام قواعد دولتهم الأولى ، بل والتى لا تزال تحتفظ ببقايا مذهبهم حتى هذه الأيام ، لعل فى ذلك كله بعض الأسباب التى جعلت من المدينة الصناعية ــ « تنيس » ــ إحـدى القواعـد النشطـة فى مصر لهذا اللـون من ألـوان التفكير والنشاط .

● وفى نفس الوقت ، الذى حدثت فيه وثبة « تنيس » وعصيانها ، كان «المصريون» يوزعون المنشورات ضد جوهر الصقلى ، وفيهـا التحذير من التعاون معه . ولقد وزع بعضها فى « الجامع العتيق » (مسجد عمرو بن العاص) ، ولكن (جوهر) قد عالج قضية المنشورات هذه بأن « جمع الناس ووبخهم فاعتذروا! »[1].

● وفى بداية ٣٦١ هــ (سنة ٩٧١م) ، « عصى أهل تنيس » مـرة أخرى ، وكان جيش القرامطـة قد استولى على مدينة « الفرمـا » ، وشارك كثير من المصريين فى نصرة القرامطة والقتـال إلى صفهم حتى وصلوا إلى عين شمس ، بـل لقد وصلوا أبواب القاهـرة فى مستهل شهر ربيع الأول مـن ذلك العام . ولقد كـانت ضمن الاستعـدادات التى اتخذهـا جـوهر لقتـال القرامطـة ، والخاصـة بجبهة البـلاد الـداخليـة ، اعتقال عـديـد مـن المواطنين ، والقبـض « على أربعة مـن الجنـد المصريين ، وضرب أعنـاقهـم وصلبهم » ، وكـذلـك تحديـد محل إقامـة « ابـن الفرات» الذى كان وزيرًا للإخشيديين ، ثـم سالم الفتح الفاطمى ، والذى كان له أخ يقاتل الفاطميين فى صفوف القرامطة ، فلقـد احتاط جوهر للأمر فأخرج ابن الفـرات من داره (بالفسطـاط) وأسكنه القـاهرة » وسط معسكـرات الجند الفاطميين[2]!

(١) المصدر السابق : ص ١٢٩ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٣٠ .

● وفى شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (سنة ٩٧١م) ، أراد بعض سكان « مصر » استفزاز جوهر ، والإعلان عن تمردهم ورفضهم لسلطانه ، فأطلقوا عجوزًا تنشد فى الطريق أناشيد لا يرضاها الفاتحون ! فقبض عليها أنصار جوهر ، وحبسوها ، « ففرح جماعة من الرعية ، ونادوا بذكر الصحابة ، وصاحوا : معاوية خال المؤمنين ، وخال على ! »[1] . فبعث جوهر إلى الجامع العتيق من يحذر الناس من مغبة ذلك ، ويتوعدهم « بالعقوبة الموجعة » ، كما أعلن تراجعه عن حبس العجوز ، وأفرج عنها ، وقال : « إننا حبسنا العجوز صيانة لها ! »[2].

● وفى نفس التاريخ ، كان صعيد مصر يشهد حركة تمرد وخروج على سلطان جوهر لعلها من أخطر الحركات التى قاومت سلطانه فى ذلك الحين ، وذلك بحكم حدوثها فى منطقة بعيدة عن معسكرات جنده ، وصالحة للتجمع والتنظيم والإعداد . فلقد « خرج عبد العزيز بن إبراهيم الكلابى ، بالصعيد ، وسوَّد (أى لبس السَّوَاد ، وهو شعار العباسيين) ، ودعا لبنى العباس » . وأمام حجم هذا التمرد وخطورته ، أرسل إليه جوهر بجيش برى يقوده أحد قادته المسمى « أزرق» ، وقوة بحرية عن طريق النيل تتألف من أربعين مركبًا يقودها « بشارة النوبى » . واستطاعت هذه الحملة أن تقضى على هذا التمرد ، وأن تعود إلى القاهرة بعبد العزيز بن إبراهيم الكلابى مصفدًا بالأغلال داخل قفص حديدى ، ثم « طيف به وبمن معه » من الأسرى فى شوارع العاصمة[3].

ونحن نلاحظ أن هذه العصيانات والتمردات وعمليات الخروج التى قام بها المصريون ضد سلطان جوهر الصقلى وسلطاته ، لم تكن موحدة الهدف ، ولا

---

(١) كان أعداء الشيعة يقولون أن معاوية خال المؤمنين . . بمن فيهم على ـ لأنه أخو صفية بنت أبى سفيان ، زوج الرسول ، وأم المؤمنين ! !

(٢) المصدر السابق : ص ١٣٠ ، ١٣١ .

(٣) المصدر السابق : ص ١٣١ .

المنطلق ، ولا القاعدة . ولا أدل على ذلك ، من أن أهـل « تنيس » عندما ثاروا إلى جـانـب القـرامطة ، لم يـرفعـوا أعـلام القـرامطـة ، بل سـوَّدُوا ورفعـوا شعـارات العبـاسيين ، كما صنع ذلـك تمرد الصعيد . وإذا كـان ذلك مفهـومًا ، بحكـم أن السلطة التى أزاحها الفاطميون من مصر كانت ، فى ظاهرها ، عباسية ، وبحكم اللقاء « التكتيكـى » وغير المبدئى ، الذى كان قـائمًا بين القرامطة والعبـاسيين ضد الفاطميين ، فإن الشعـارات التى لم تكن مفهومـة ، هى تلك التى رفعهـا متمردو الفسطاط والمتمـردون من طائفـة (الصيارفـة) فى سنة ٣٦٢ هـــ (سنة ٩٧٢م) ، الذين صاحـوا : « معاوية خال المؤمنين ، وخال على ! » . فلم يكـن الأمويون ، الذين دالت دولتهم بالمشرق منذ أكثر من قـرنين من الزمان ، بواردين أصلاً فى هذا الصراع ، مما يؤكد أن بعض هذه التمردات والانتفاضات لم يكن ليخرج عن حدود الاستفزاز غير المنظم ، و « الإغاظة » المؤقتة لسلطان الفاتحين الفاطميين ! .

- وفى آخـر ذى الحجة سنـة ٣٦١ هــــ (سنـة ٩٧٢م) ، وكان جيـش القرامطـة الغـازى قد تمت هـزيمتـه ، شرع الجنـود الفاطميـون المغـاربـة فى الانتقام مـن المصريين ، الذيـن أيد بعضهـم الغزو القـرمطى ، والـذين تمرد بعضهـم منتهزًا فرصة هذا الصراع ، فقاموا بعمليـات سلب ونهب واسعة النطاق فى « مواضع » من مـدينة الفسطاط ، « فثارت الـرعية ، فاقتتلوا قتـالاً شديدًا » . ولقد عـالج جوهـر هذه السلسلة مـن ردود الأفعال المتبادلـة بالسيـاسة والكياسـة ، فبعث بقائده « سعـادة بن حيـان » إلى مكان الأحـداث ، وقدر الخسـائر التى لحقـت بالمصريين ، « وغرم للناس ما نهب لهم ، وقبل قولهم فى ذلك » [1] التقدير.
- وفى ربيع الأول سنة ٣٦٢ هــ (سنة ٩٧٢م) ، حدث « شغـب مهنى » ، إن جاز التعبير ، قام به جمع من الصيارفـة ، بسبب التغييرات التى أخذت السلطة الجديدة تجريها فى الأجهزة الإدارية والمالية بالبـلاد . فلقد عزل المحتسب الجديد «سليمان بن عزة» «جماعة من الصيارفة ، فشغب طائفة منهم، وصاحوا : معاوية

---

(١) المصدر السابق : ص ١٣١ .

خال على بن أبى طـالب ! فهم جوهر بإحراق رحبـة الصيارفة (دار ديوانهم) ، لولا خوفه على الجامع » (جامع عمرو بن العاص) [1].

● ويبدو أن مدينة « تنيـس » قد عاودت المقاومة مرة أخرى إلى جـانب القرامطة ، فلقـد وصلها أسطـول للقـرامطـة فى شهر ذى القعـدة سنـة ٣٦٢ هـــ (سنـة ٩٧٣م) ، ودارت فيها معارك انتهت بانتصـار الفاطميين ، حتى إذا كان الشهر التالى قام جوهر بإحضار جماعة من أهل « تنيس » ، وفرض عليهم ديات القتلى المغـاربة الـذيـن قتلـوهم أثنـاء تمردهـم إلى جانـب القـرامطـة ، وطلب منهـم ٢٠٠,٠٠٠ دينار ، « ثم استقر أمرهم على ألف ألف درهم » [2].

● ولكن المغـاربة لم يكتفوا بهذه الـديات التـى دفعها أهل « تنيـس » ، فحدث فى المحـرم سنة ٣٦٣هـــ (سنـة ٩٧٣م) ، أن أخذ المغـاربة فى اقتحـام المساكـن المصرية بـالعاصمة ، وخـاصة فى أحياء « القـرافة » و « المعافـر » ، واحتلالها ، «فنزلـوا المدينة ! » ، علماً بأنـه قد كـان محظورًا عليهم تجاوز « الخطـط » الخاصة بهم ، والمعسكرات التى أقيمت لهم . فتظاهـر الناس ، « واستغاثوا إلى المعز » ، فـأمر بـأن يترك المغاربـة هذه المسـاكـن لأصحابها ، وأن يسكنـوا بدلاً منهـا فى ضاحية « عين شمس » . وبذلك ، بدأ المغـاربة ، شيئًا فشيئًا ، يتجاوزون سور القاهرة الأول الذى بناه جوهـر ، ويخالطون المصريين ، ويشاركونهم السكنى ، حتى سكن « أكثرهم فى المدينة ـــ (الفسطاط) ـ مخالطين لأهل مصر » ، مما فتح صفحة جـديدة فى التفاعل والانصهـار بين هذه الفئات ، التى وإن تصـادمت مصالحها فى البداية كثيرًا ، إلا أن روابط العروبة والإسلام ، ثم المعايشة المشتركة والمصالح الموحدة التـى أفرزتها الحياة ، قد صهرتهم جميعًا ووحـدت بينهم بمرور الأيام والأعوام .

● وفى نفس الشهـر ، الذى اقتحم فيه المغـاربة بيوت المصريين ، وفى يـوم العاشر

---

(١) المصدر السابق : ص ١٣٢ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

منه (يوم عاشوراء) على وجه التحديد ، كادت أن تحدث اصطدامات مروعة . ذلك أن المصريين قد تحفزوا لرد عدوان المغاربة ، عندما اعتدوا على أسواقهم ، « وكسروا أوانى السقائين فى الأسواق ، وشققوا الروايا (القرب) ، وسبوا من ينفق (ويتعامل) فى هذا اليوم » ، وذلك أثناء رجوعهم صائحين باكين فى ذكرى استشهاد الحسين ، من قبر السيدة « نفيسة » ، و « كلثم بنت محمد بن جعفر بن محمد الصادق » . ولكن أبا محمد الحسن بن عمار ، قائد كتامة ، قد سارع لتهدئة الخواطر ، مما أوقف رد فعل المصريين الذين كانوا قد « أغلقوا الدكاكين ، وعطلوا الأسواق ، استعدادًا للقتال ! » [1].

- وفى يوم عيد الفطر من العام التالى سنة ٣٦٣ هـ (سنة ٩٧٣م) ، تجددت الاضطرابات بين الفريقين مرة أخرى ، و « ثارت فتنة بين المصريين والمغاربة ، فقبض على جماعة (من المصريين) وضربوا » [2].

- فإذا ما انقضى عهد المعز لدين الله ، وجاء عهد العزيز ، استمرت صفحات التاريخ فى إمدادنا بهذه النتف ، التى تضمن لهذه القسمة إمكانيات الدوام والاستمرار.

ففى مواجهة إغراق الشيعة الفاطمية فى تقديس الأئمة أمراء المؤمنين ، وفى مواجهة ما يعتقدونه من عصمة الإمام ، وما يزعمه بعضهم من علمه للغيب وانفراده بالتعليم والتأويل ، نجد سخرية المصريين من هذه الأفكار ، وتعبيرهم عن هذه السخرية بالوسائل المختلفة ، ومن بينها الشعر ، الذى كانوا كثيرًا ما يكتبونه فى المنشورات . فعندما يصعد العزيز إلى المنبر ليخطب الناس فى أحد الأيام ، يجد أمامه تلك البطاقة (المنشور) التى يقول فيها كاتبها :

بالظُّلْم والجَوْر قد رضِينا … وليسَ بالكُفْر والحماقةْ
إنْ كنتَ أُعْطِيتَ عِلْمَ غيبٍ … فقلْ لنا كاتِبَ البِطاقةْ [3] !!

---

(١) المصدر السابق : ص ١٤٥ ، ١٤٦ . (٢) المصدر السابق : ص ٢٢٣ .

(٣) الحاكم بأمر الله : ص ٢٤٦ .

● وإذا كان صاحب هذه الأبيات قد أخفى شخصيته ، وتحدى العزيز أن يعلم من هو ، فإننا نجد المقريزى يحدثنا عن شاعر آخر ، سبقت إشارتنا إليه ، هو «الحسن بن بشر » ، ذلك الذى أخذ على عاتقه « هجاء » العزيز، و«نقد» تصرفاته ، و«الهجوم» على حاشيته وبطانته ووزرائه وقواده .

ونحن نلمح فى مقدمة المثالب والعيوب التى يرمى بها الحسن بن بشر حكم العزيز وشخصيته ، ضعف شخصية الخليفة ، وقوة نفوذ وزيره يعقوب بن كلس ، والسيطرة المسيحية التى كانت فى بلاط الفاطميين فى ذلك التاريخ .

ففى بعض قصائده ، يهجو الخليفة والوزير وكاتب الإنشاء أبا نصر عبد الله ابن الحسين القيروانى ، فيقول :

قل لأبى نصر كاتب القصر	والمتأتّى لنقض ذلك الأمرِ
انقض عُرى الملك الوزير	تفز منه بحسن الثنا والذكر
واعط وامنع ، ولا تخف أحدًا	فصاحب القصر ليس فى القصر
وليس يدرى ماذا يراد به	وهو إذا درى فما يدرى

وفى قصيدة أخرى ، نجده يتناول فى أحد أبياتها بالذم العنيف والهجاء الشديد : الخليفة ، والوزير ، و « رباح » نديم الخليفة ، عندما يقول :

زيارجى نديم، وكليسى وزير   نعم،على قدر الكلب يصلح الساجورا !

ولقد دفع هذا الشاعر ـ الذى سبق أن قدمنا نقده لسيطرة المسيحيين على بلاط العزيز ـ رأسه ثمنًا لموقفه هذا ، عندما قبض عليه ، وحبس ، ثم أمر يعقوب بن كلس بقتله قبل أن يعفو عنه العزيز [١].

● وإذا كنا قد سبق أن أشرنا إلى ألوان من التظاهرات والتمردات والانتفاضات ،

(١) اتعاظ الحنفا : ص ٢٩٨ .

التى حدثت على عهد الحاكم بأمر الله ، لأسباب اقتصادية تعلقت بالمجاعات والأزمات والغلاء ، ولأسباب فكرية تعلقت بشذوذ بعض المراسيم التى أصدرها ، وغلوها من وجهة النظر السلفية السنية ، فإننا نستطيع أن نضيف إلى تلك الوقائع والأحداث تلك الإشارة التى نلمحها فى مصادر تاريخ هذه الفترة ، والتى تتحدث عن قيام ثورة دامت عامين كاملين ، و « طالما أحدثت القلاقل فى مصر » ، وكيف استطاع الحاكم أن يخمدها ، وإن يكن قائده الذى قاد عملية إخمادها لم ينج من القتل على يد الحاكم فى تلك الحملات الشهيرة من الاغتيالات[1].

● وإذا كانت التظاهرات والمنشورات والقتال المسلح ، قد كانت وسائل للمقاومة ، استخدمها الشعب فى تلك الفترة ، على ما ذكرنا ، فإن هناك وسيلة طريفة تجمع إلى جانب التعبير جوانب من الفن ، وربما من الرهبة والخوف كذلك ، وهى تلك التى تمثلت فى التماثيل التى كان الشعب يصنعها من الورق على هيئة الإنسان ، ليُحمِّلها العرائض والشكايات والمظالم ، ثم ينصبها فى طريق الحاكم بأمر الله ، ومن قبله العزيز ، ليرفع عن طريقها صوته ، ثم لا يقع فى قبضة الغضب والإرهاب !

ولم تكن هذه الوسيلة خاصية من خصائص عصرى الحاكم والعزيز فقط ، بل إن ابن كثير يحدثنا أن الناس كانوا يكتبون ظلاماتهم للحاكم ، « ولأسلافه فى صورة قصص . . حتى إن أهل مصر عملوا صورة امرأة من ورق بخفيها وإزارها ، وفى يدها قصة بها من الشتم واللعن والمخالفة شىء كثير ، فلما رآها ظنها امرأة ، فذهب من ناحيتها ، وأخذ القصة من يدها ، فقرأها ، فرأى ما فيها ، فأغضبه ذلك جدًا ، فأمر بقتل المرأة . فلما تحققها من ورق ، ازداد غيظًا إلى غيظه »[2] . حتى لقد قيل إنه أضمر الانتقام من أهل الفسطاط جميعًا بسبب هذه الحادثة .

---

(١) الحاكم بأمر الله : ص ١٣٥ .

(٢) البداية والنهاية : جـ ١٢ ، ص ٩ .

فلما جاء شهر جمادى الآخرة سنة ٤١١ هـ (سنة ١٠٢٠م) ، جعل العبيد يغيرون على المدينة وينهبونها . ثم اشترك معهم الترك والمغاربة ، فأضرموا النيران فى أطراف الفسطاط ، وهب سكان المدينة يقاتلون دون مدينتهم وثرواتهم . واستمرت هذه المعركة أيامًا ثلاثة . وعندما استفحل الأمر ، وأصبحت المدينة قاب قوسين أو أدنى من الدمار الشامل ، انقلب الأتراك والمغاربة إلى صف الأهالى ، وتحالفوا معهم ضد العبيد ، وذلك خوفًا على أقاربهم وذويهم الذين كانوا يسكنون المدينة ، وطالبوا الحاكم بمنع العبيد ، وهددوه بالإغارة على القاهرة وحرقها ، فاضطر لوقف هجوم العبيد ، وأصدر للناس مرسومًا بالأمان قرىء على منابر المساجد [1]!

● وقبل هذه الحادثة الشهيرة والخطيرة فى عصر الحاكم ، كان شغب قد وقع بين السلفيين « السنيين » وبين الشيعة ، جعل الحاكم بأمر الله يعيد النظر فى موقف الغلو والانحياز الشديد لفكرية الشيعة ضد السلفية ، على الأقل فيما يتعلق بالمستوى الجماهيرى ، فأصدر فى رمضان سنة ٣٩٨ هـ (سنة ١٠٠٧م) مرسومًا على جانب كبير من الأهمية يدعو فيه إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية ، جاء فيه :

« لا إكراه فى الدين . . مضى أمس بما فيه ، وأتى اليوم بما يقتضيه . معاشر المسلمين : نحن الأئمة ، وأنتم الأمة . . من شهد الشهادتين . . ولا يحل عروة بين اثنين ، تجمعهما هذه الأخوة ، عصم الله بها ما عصم ، وحرم عليها ما حرم . . يطوى ما كان فيما مضى فلا ينشر ، ويعرض عما انقضى فلا يذكر ، ولا يقبل على ما مر وأدبر من إجراء الأمور على ما كانت فى الأيام الخالية ، أيام آبائنا الأئمة المهديين . يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون . وصلاة الخميس للذين بها جاءهم فيها يصلون ، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون . يخمس فى فى التكبير على الجنائز المخمسون ، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون . يؤذن

(١) الحاكم بأمر الله : ص ١٩٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

بحى على خير العمل المؤذنون ، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون . لا يسب أحد من السلف ، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما وصف ، والخالف فيهم بما خلف . لكل مسلم مجتهد فى دينه اجتهاده . ليكن ، عباد الله، على مثل هذا عملكم منذ اليوم ،لا يستعلى مسلم على مسلم بما اعتقده ، ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتمده»[1].

● وإذا كنا نعتقد بالأهمية الكبرى لهذه الوثيقة ، التى أصدرها الحاكم بأمر الله فى رمضان سنة ٣٩٨هـ فى الأمور التى تتعلق بشئون الدين والاعتقادات ، والتى حوت أفكارًا وقيمًا لا يزال المسلمون المستنيرون يجاهدون فى سبيل سيادتها وتطبيقها حتى فى عصرنا هذا ، عندما يتحدثون عن التقارب بين المذاهب والفرق الإسلامية ، فضلاً عن توحيدها ، فإننا نلتقى فى العصر الفاطمى بوثيقة أخرى ذات أهمية بالغة ، كادت أن تكون دستورًا اضطر الشعب الخليفة العزيز إلى كتابتها وإصدارها ، ثم أخذ الناس فى نسخها وتداولها ، بل وجعلوا منها مادة يعلمونها الصبيان فى دور العلم ، ويتعلمون بواسطة قراءتها وكتابتها القراءة والكتابة فى الكتاتيب مثلها فى ذلك مثل القرآن الكريم .

فالمقريزى ، ينقل لنا عن الوزير المؤرخ المعاصر للدولة الفاطمية ابن الصيرفى (المتوفى سنة ٥٤٢ هـ سنة ١١٤٧م) وصاحب كتاب (الإشارة إلى من نال الوزارة)، أنه قد حدث فى سنة ٣٧٧ هـ (سنة ٩٨٧م) أن أحد التجار الغرباء الذين كانوا يزورون القاهرة لأمور تتعلق بالتجارة قد قتل فى المنزل الذى كان ينزل فيه فى « قيسارية الإخشيد » خلف جامع عمرو بن العاص ، وأخذ ما كان بحوزته من الأموال . ويبدو أن القاتل السارق كان أحد رجالات الدولة ، واسمه «رشيق»، الذى كان يتولى أحد المناصب المهمة فى « الشرطة السفلى» (بوليس مدينة الفسطاط) . وحتى يغطى فعلته ، ألقى القبض على مجموعة من أبناء

---

(١) المصدر السابق : ص ١٤٧ (نقلاً عن : ابن خلدون جـ٢ ، ص ٦٠).

التجار المصريين والسكان المجاورين لمكان الجريمة ، ولكن الناس شنعوا عليه ، وعلت أصواتهم بالاتهامات ، ورفعوا إلى الخليفة أن « رشيق » هذا هو الذى ارتكب الجريمة ، وأنه قد « دس على الرجل من قتله وأخذ ماله . . وأنه اعتقل أبرياء مستورين » . فما كان من الخليفة العزيز إلا أن استجاب لهذه العريضة التى رفعها شعب الفسطاط ، وكتب على ظهرها فى شهر ذى الحجة من نفس العام ذلك «التوقيع» الذى تلقفه الشعب واعتبره « ميثاقًا » على جهاز الحكم ، تقوم على هدى من قواعده ومعاييره العلاقة بين الحاكمين والمحكومين .

ولقد جاء فى هذا التوقيع ، الذى وجهه الخليفة إلى وزيره يعقوب بن يوسف بن كلس ، ما يلى :

« سلم الله الوزير ، وأبقى نعمته عليه .

هذه رقعة رفعت إلينا بالأمس . الوزير ـ سلمه الله ـ يطلع عليها ، ويتدبرها . والأمر ، والله ، فظيع ، يسوء الأولياء ويسر الأعداء . وبالأمس ، كنا نضحك من « فَنّا خُسْرُو» ، واليوم ألجمنا بعار منى علينا فى بلد نحن ساكنوه ، والأخبار تسير به فى البلدان . وحسبك بقتل الأنفس فى مواضع الأمن والطمأنينة فى وسط عمارة المسلمين ، وتؤخذ الأموال . وقد وكل الأمر إلى رجلين (قادة الشرطة) لا يخافان الله ، عزّ وجلّ ، ولا يتقيانه . والدنيا فانية ، والآجال متقاربة ، وإن أصبح الإنسان فما يدرى أنه يمسى .

فوالله ، لو جرى مثل هذا فى بلد بعيد عنا لوجب الاحتساب لله فيه ، فكيف تحت كنفنا وفى بلدنا ؟!

فليستقص الوزير سلمه الله ، عن هذه القصة ، ويوتر الله ويوترنا (أى يقتص) ، ويغسل هذا العار عن الدولة ولا يغمها به . فوالله الذى لا إله إلا هو ، وحق جدى ، رسول الله ، ﷺ ، ما كتبت هذه الرقعة إلى الوزير ، سلمه الله ، إلا وأنا خائف من نقم الله ، جلّ اسمه ، لكثرة تغافلنا وإهمالنا إلى أن صارت المعاملة فى سفك الدماء وقتل الأنفس . فليس على هذا صبر ، ولا بد لك من الاستقصاء

على هذه القصة ، فأوثق الناس إلى أن تنكشف ، فينتقم من فاعلها ، وتبرأ إلى الله تعالى منه ، فيعمل الوزير ، سلمه الله ، فى ذلك عملاً يأجره الله عليه ونشكره ، ولايتوانى عنه . فليس ما تغسله عن أنفسنا بانكشاف هذه القصة قليلاً عند الله ، جل وعلا ، وعند عبيده من بعده .

وأنا أقسم على الوزير بحياتى ألا يتوانى عن هذا الأمر ، وليسرع بالفراغ منه ، وخلاص هؤلاء الرجال المساكين (المعتقلين) من مد يد من يطلب أموالهم وأنفسهم ظلماً وعدواناً .

والشرط والولاية قد صارت إرثاً ، فلينظر الوزير ، سلمه الله ، أن يولى الشرطتين إنسانين يخافان الله ، عزّ وجلّ ، ويتقيانه ، فلا جمع الله مالهما ولا ما يجيء منهما بتقلد .

فقدم ما أمرناك به فى الوجوه ، وأظهره فى الناس لتطيب أنفسهم ، وليعلموا أنا لا نغفل عن شيء يبلغنا لله فيه رضا ، ولهم فيه صيانة .

والله حسبى ، وعليه توكلى ، والسلام على الوزير ورحمة الله» .

وينقل لنا المقريزى تعليق ابن الصيرفى على هذا « التوقيع » ، الذى لم يصلنا كاملاً ، بقوله : « فنسخ أهل مصر هذا التوقيع ، وصار الصبيان فى المكاتب يعلمونه كما يعلمون الحمد »[1] ، أى سورة الفاتحة التى تبدأ بالحمد لله .

---

(١) اتعاظ الحنفا : ص ٢٦٣ ـ ٢٦٦ .



الفصل التاسع

أسباب الاضمحلال

- دراسة للعوامل الاجتماعية والسياسية والحربية التى عجلت بنهاية النظام الفاطمى ، والآثار الفكرية التى أثمرتها هذه العوامل ، فساعدت على أن ترث الدولة الأيوبية العسكرية خلافة الفاطميين .

على أن « الوثائق » و « المواثيـق » و « التوقيعات » ، ما كـان لها وحدها ، مهما كانـت عباراتها ثورية ومتقـدمة ، ومهما كانـت حاوية للحـديث عن قيم العـدالة والإنسانية ، أن تضمن لقيمها هذه بلوغ مـرحلة التطبيق ، فضلاً عن الحفاظ على الاستمرارية والنقاء لهذا التطبيق . وليس بغير الرأى العام المنظم ، يستطيع شعب من الشعوب أن يجنـى ثمار هذه الوثائق والمواثيق والتوقيعـات . والأمر المؤكد ، أن اختلال هذا الشرط فى مصر الفاطمية هو الذى حَرَمها أن تجنى ثمار هذا « التوقيع العزيزى » المهـم ، كما حرمها من بعـد ذلك أن تحافظ على تلك الصحـوة التى قد صنعها الحاكم بأمر الله ، عندما تغلـب على المجاعات ، وأباد الكثير من العناصر القبلية والعسكـرية التى كانـت تتصارع على السلطة والسلطـان ، وتمزق شخصية المجتمع كل التمزيق .

الشدة المستنصرية

ونحن إذا استعـرنا ، ولـو للحظات ، تلـك القصة التـى تربـط بدء تـأسيس القاهـرة بظهور النجم « القاهـر» ، وترمز به إلى طـالع الدولة الفـاطمية فى مصر ، فإننا نستطيع أن نقـول إن هذا النجم وذلك الطالع الفاطمـى قد أخذ فى الأفول ، منـذ أن بدأت سلسلـة المجـاعات الـرهيبـة التـى عرفتهـا البـلاد فى عهد الخليفـة المستنصر (١٠٣٥ ــ ١٠٩٤م ، ٤٢٧ ـ ٤٨٧ هــ) ، والتـى بـدأت أولاها سنـة ٤٤٤هــ (سنة ١٠٥٢م) . وإذا كانت مدة حكم المستنصر قد ضرب بها المثل فى

الطول الزمنى ، فإنها قد ضرب بها المثل كذلك فى تكرار المجاعات وشدتها ، حتى كادت أن تتصف بالدوام وأن تعجز عن تصويرها الأقلام !!

● ففى سنة ٤٤٤ هـ (سنة ١٠٥٢م) ، وقع غلاء شديد نتج عن نقصان ماء النيل . ولكن هذا الغلاء ، لم يلبث أن تحول إلى مجاعة بسبب من سوء تدبير الوزير أبى محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى . فلقد كان هذا الوزير، كما أشرنا من قبل ، راعيًا للفن والفنانين ، ولكن يبدو أن ثقافته الاقتصادية وخبرته فى التجارة وقوانين الأسواق ، كانتا دون تذوقه للفن بكثير !

فلقد حدثت منافسات غير مشروعة بين عامة الخبازين وبين « العريف » (الرئيس) الذى كان يتولى مشيخة هذه الحرفة . وكان سعر الخبز يومها : « أربعة أرطال بدرهم وثمن » . فنزلت به المنافسة الكيدية غير المشروعة من جانب عامة الخبازين ضد رئيسهم ، إلى « عشرة أرطال بدرهم » . وفرح الوزير بذلك ، ولم يبصر عواقبه الاقتصادية ، بل وكافأ الذين بدءوا هذه المنافسة !!

وكانت العادة قد استقرت أن تودع بمخازن الخليفة كميات من القمح ، احتياطًا للطوارىء ، تبلغ قيمتها ١٠٠,٠٠٠ دينار ، ولكن الوزير الفنان لم ير ضرورة للمحافظة على هذا التقليد ، لأن القمح متوفر فى الأسواق ، ورخيص السعر ، والخبز معروض على الناس بأسعار يتزايد رخصها يومًا بعد يوم ، فعلام يكون تخزين هذه السلعة ذات الأسعار غير الثابتة ؟! وبدلاً من القمح ، قام الوزير اليازورى بتخزين العسل والخشب والحديد والرصاص !!

وبعد ثلاث سنوات من تطبيق هذه السياسة الخرقاء ، وعندما حدث نقص فى منسوب مياه النيل فى سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥م) ، لم يكن لدى الدولة من مخزون القمح « إلا جرايات من فى القصور ، ومطبخ السلطان وحواشيه لا غير ! » .

وانتهز التجار الفرصة ، فأخذوا فى تخزين القمح وإخفائه ، بل وقاموا بشراء محصوله من الزراع قبل نضجه . واضطربت أحوال البلاد ، ومات الوزير اليازورى فى هذه الظروف . وضجت الرعية تخاطب المستنصر مباشرة ، حتى

بلغت عرائضها وشكاياتها وظلاماتها التى تصل إليه ثمانمائة شكاية فردية وجماعية فى اليوم الواحد . ولمدة خمس سنوات عاشت البلاد فى فوضى ، تغلب أثناءها الأقوياء من العمال على نواحيهم واستبدوا بأمورها ، وحدثت المصادرات لمن عنده شىء يصادر ، وامتد النهب والسلب إلى ممتلكات الخليفة حتى « أحوجوه إلى بيع أغراضه » ومتاعه وحاجياته (١)!

● وبعد مرور خمس سنوات ، بدأت فى سنة ٤٥٧ هـ (سنة ١٠٦٤م) المجاعة الكبرى التى عرفت باسم « الشدة المستنصرية » ، والتى قصمت ظهر النظام الفاطمى ، وأدت إلى عصر سيادة الجند والوزراء . ولقد بدأت هذه المجاعة بنقصان فى مياه النيل ، صاحبه انتشار وباء شديد الفتك بالناس . وصادف ذلك كله ، « ضعف السلطنة ، واختلال أحوال المملكة ، واستيلاء الأمراء على الدولة ، واتصال الفتن بين العربان » (٢) ووجد المستنصر نفسه وجهًا لوجه ، حيال « الخوارج الذين سعوا فى دولته ، وبدلوا نعمة الله كفرًا ، وعصوا لولى أمرهم أمراً ، واستفسدوا أصناف عسكره عليه ، وأوحوا إلى المشارقة بأن أمير المؤمنين يقوّى عليكم المغاربة ، وإلى المغاربة بأنه يقوّى عليكم المشارقة ، وأغروهم بالإلحاف فى السؤال ، بأن يعطيهم ما ذخره فى خزانته من الأموال ، وكانوا يطلبون شيئًا فشيئًا ، وكان أمير المؤمنين لا يدفعهم عن طلب شىء ، حتى أمست خزانته من المال بلقعًا ـ (خاوية) ـ ونفد ما ألفه هو وآباؤه الطاهرون ، عليهم السلام ، أجمعا ! » (٣)، حسب تعبير المستنصر نفسه .

وفى هذه الشدة ، التى استمرت سبع سنوات ، حدثت للشعب المصرى مأساة يعجز الخيال المعاصر والخصب عن الإحاطة بجوانبها وأبعادها . فرغيف الخبز ، بيع كما تباع التحفة النادرة « بزقاق القناديل » بمدينة الفسطاط ، « بخمسة عشر

---

(١) إغاثة الأمة بكشف الغمة : ص ١٨ ـ ٢٣ .
(٢) المصدر السابق : ص ٢٤ .
(٣) السجلات المستنصرية : ص ١٨٣ .

ديناراً » !! وأردب القمح بلغ سعره ثمانين ديناراً !! وبدأ الناس فى ذبح الماشية التى نجت من الوباء فأكلوها ، ثم ذبحوا الخيل والبغال والحمير فأكلوها ، ثم ذبحوا القطط والكلاب فأكلوها !! ولقد بلغ من ندرة الكلاب ، بسبب ذلك ، أن بيع أحدها ، كى يؤكل ، بخمسة دنانير !! ثم وصلت المأساة إلى الحد الذى أكل الناس فيه لحوم بعضهم البعض ، وتألفت لذلك عصابات تعلو أسطح المنازل وبيدها « سلب وحبال فيها كلاليب ، فإذا مر بهم أحد ألقوها عليه ، ونشلوه فى أسرع وقت ، وشرحوا لحمه وأكلوه !!

ولقد جاء الوزير يوماً للقاء المستنصر ، فهجم الجياع الذين تجمهروا حول القصر على بغلته ، وأكلوها !! فما كان منه إلا أن شنق جماعة منهم ! فما كان من الجمهور الجائع إلا أن أكل جثث المشنوقين !!

ولقد بلغت المأساة قمتها ، عندما باع الخليفة كل ما يملك ، ولم يبق له سوى « حصير » يجلس عليه ، وجراية من الخبز تتصدق عليه بها يومياً ابنة أحد العلماء !! وعندما كانت نساء القصور يخرجن ، ناشرات شعورهن ، يصرخن : الجوع ! الجوع ! يردن الخروج من المأساة والهرب إلى العراق العباسى ، فلا تسعفهن الأجسام والقوى ، فيسقطن صريعات عند المصلى !! وعندما نهب الجياع الثائرون المكتبة المستنصرية ، وكان بها يومئذ ٢٠٠,٠٠٠ كتاب[1] !!!

وكما سبق أن أشرنا ، عند الحديث عن المجاعات ، التى اعترضت نظام الحاكم بأمر الله ، إلى دور سوء الإدارة والظلم الاجتماعى واحتكار التجار والموسرين للغلال ، وهم الذين قال المقريزى إنهم يستفيدون من المحن والشدائد ، فإننا نشير هنا إلى أن عمق هذه المأساة وحِدَّة هذه المجاعة ، لم تكونا تعنيان أن البلاد قد خلت من مخزون الغلال المكدس لدى التجار والموسرين . وذلك ، بدليل ما حدث بعد أن بلغ المستنصر أن امرأة اشترت كمية من الدقيق بمبلغ ألف

---

(١) إغاثة الأمة بكشف الغمة : ص ٢٤، ٢٥ . وتاريخ العرب : جـ٣ ، ص ٧٤٥ .

دينار ، فأخذ الناس ينهبون دقيقها هذا وهى فى الطريق إلى المنزل ، حتى لم يتبق لها منه سوى حفنة واحدة نهبتها هى الأخرى مع الناهبين ، فخبزتها قرصة ، ثم ذهبت إلى مرتفع أمام قصر المستنصر ، ونادت بأعلى صوتها قائلة : « يأهل القاهرة! ادعوا لمولانا المستنصر ، الذى أسعد الله الناس بأيامه ، وأعاد عليهم بركات حسن نظره ، حتى تقوَّمَتْ علىَّ هذه القرصة بألف دينار » !! . وعند ذلك امتعض المستنصر ، وهدد الوالى بالإعدام إن لم ينقذ ما يمكن إنقاذه من أحوال الناس . فجمع الوالى تجار البلاد ، ثم جاء بعدد من المسجونين الذين ينتظرون تنفيذ حكم الإعدام ، وألبسهم زى كبار التجار والسَّرَاة والأعيان ، وأخذ يدخلهم واحدًا واحدًا إلى مجلس التجار ، ويعنفهم على حبسهم للغلال ، ورفعهم للأسعار ، ثم يأمر بقطع رقابهم ، الواحد بعد الآخر ، حتى خاف التجار أن تدور الدائرة على رقابهم ، فاعتذروا للوالى ، ورجوه إطلاق سراحهم على أن يصلحوا شأن الحالة الاقتصادية للبلاد ، وقالوا له : « أيها الأمير ! فى بعض ما جرى كفاية . ونحن نخرج الغلة ، وندير الطواحين ، ونغمر الأسواق بالخبز ، ونرخص الأسعار على الناس ، ونبيع الخبز رطلا بدرهم » . فرفض الوالى هذا السعر ، قائلاً : « ما يقنع الناس منكم بهذا » فاتفقوا على أن يكون سعره رطلين بدرهم واحد ، فأجابهم إلى طلبهم ، ووفوا هم أيضًا بما شرطوه (1) !

سيطرة العسكر

ولقد أدت هذه الشدة ، التى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ مصر ، إلى أن استدعى الخليفة المستنصر حاكم « عكا » العسكرى ، الأرمنى الأصل ، بدر الجمالى على رأس جيش من رجاله ، كى يعيد الأمن للبلاد ، وليتولى الوزارة فى سنة ٤٦٧ هـ (سنة ١٠٧٥ م) . وعندما دخل بدر الجمالى قصر المستنصر ليتقلد الوزارة ، « برز أمير المؤمنين من حجرات قصره إلى إيوانه ، فأفاض عليه حلة شرف

---

(1) إغاثة الأمة بكشف الغمة : ص ٢٥ ـ ٢٧ .

كانت على جثمانه ، ونزع عن منكبه سيف الاقتدار ، وقلده تقليد جده لأبيه بذى الفقار [1]. وفوض إليه أمور الملك الذى استخلفه الله تعالى على سلطانه ، خلافة عنه فى دينه ودنياه ، ورفعا به إلى محل لا يستحقه سواه » [2] ولقبه « بالسيد الأجل ، الأفضل أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين » [3].

ولقد أخذ بدر الجمالى وقواته العسكرية فى إعادة الأمن إلى البلاد ، وضبط وحدتها الإقليمية ، والقضاء على جيوب المتغلبين الذين استقلوا ببعض الأجزاء ، وروى سيوفه بدماء خمسين ألف متمرد من قبيلة لواته ، كما هزم طوائف الأعراب فى البوادى طائفة بعد طائفة [4].

غير أن هذا الأمن والاستقرار الذى بدأ على يديه ، إنما كان يؤرخ لبداية عصر جديد ، عصر سلطة الوزراء العسكريين وطغيان الأجناد ، وتقلص الخصائص التى تميزت بها الدولة الفاطمية ، حتى جاء الوقت الذى وجدنا فيه الأفضل بن بدر الجمالى الذى خلف أباه فى السلطة سنة ١٠٩٤م - (سنة ٤٨٧هـ) يغلق الأكاديمية العلمية التى بناها الحاكم بأمر الله (دار الحكمة) ، بحجة انحراف بعض الدارسين فيها ، كما يتخلى عن المذهب الشيعى ، ويحرم « نزار » بن المستنصر حقه فى الخلافة ليضع مكانه « أخاه « المستعلى » ، كى يكون طوع بنانه ، مما أفقد منصب الخلافة كل ما كان له من قبل من هيبة وجلال . وحتى وجدناه يخلف لنا ثروة وجد فيها عندما قتل سنة ١١٢١م - (سنة ٥١٥هـ) ثلاثة ملايين من الجنيهات الذهبية ، وحتى قيل إن ثمن اللبن الذى كان يحلب من أبقاره الخاصة ، قد بلغ فى العام الواحد ١٥,٧٥٠ جنيهًا [5].

---

(١) الجد هنا ، هو الرسول عليه الصلاة والسلام ، والأب هو على بن أبى طالب ، الذى قلده الرسول السيف المسمى ذا الفقار .

(٢) السجلات المستنصرية : ص ١٠٨ .

(٣) المصدر السابق : ص ١٤٧ . (٤) المصدر السابق : ص ١٨٤ .

(٥) خطط المقريزى : جـ ١ ، ص ٤٥٩ ، وسيرة القاهرة : ص ٨١٤٥

وإذا كان الأفضل قد قتل على يد « المأمون البطائحى » ، فلقد قتل المأمون على يد أحمد بن الأفضل ، الذى أعاد سيرة أبيه فى تقليل الاهتمام بالمذهب الشيعى ، حتى لقد عين بعض القضاة السنيين مكان الشيعة ، بل وقطع الخطبة للخليفة من فوق المنابر وأحل اسمه محله !

وليت هذا الأمر قد ضمن الأمن للمواطنين . وليت هذه التطورات قد أبعدت شبح المجاعات والأزمات عن البلاد . إذن لكان هناك مقابل حصلت عليه مصر فى نظير تقهقر حكم المنطق والعقل والحكمة أمام سلطان الوزراء المستبدين غير المستنيرين ، وسلطات الأجناد الذين سيطروا على كل شىء فى البلاد . بل إن الأمر الذى جعل من هذه التطورات الداخلية فى البلاد خسارة لا مكسب فيها ، وسلبًا لا إيجابيات فيه ، هو أن أشباح المجاعات والأزمات الغذائية ، قد ظلت تهدد البلاد من حين إلى حين ، وإن تكن فى فترات محدودة ومؤقتة ، كما حدث فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله (١١٠١ ـ ١١٣٠ م ، ٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ) ، زمن وزارة الأفضل ، وفى عهد الخليفة الحافظ لدين الله (١١٣٠ ـ ١١٤٩ م ٤٢٥ ـ ٥٤٤ هـ) ، زمن وزارة الأفضل بن ولخشى ، وفى عهد الخليفة الفائز (١١٥٤ ـ ١١٦٠م ، ٥٤٩ ـ ٥٥٥ هـ) حيث وصل سعر أردب القمح إلى خمسة دنانير .

وليت هذا الأمر قد ضمن الاحترام لمنصب الخلافة ، والأمن للخلفاء الذين مارسوا سلطاته ، ولكن الذى حدث هو أن الخلفاء قد أصبحوا أسرى جبروت الوزراء وقواتهم المسلحة . بل لقد أصبح أمر تولية هؤلاء الخلفاء والتخلص منهم محل نظر هؤلاء الوزراء . وعندما قتلت الإسماعيلية الباطنية الخليفة الآمر بأحكام الله ابن المستعلى ، فى ٢ من ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ (سنة ١١٣٠م) ، تولى سلطات الخلافة من بعده غلام أرمنى من غلمانه لمدة ثلاثة أيام [1] ! حتى حضر الوزير أبو على أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى ، فأقام الحافظ خليفة على البلاد بعد مضى أكثر من سبعين يومًا على قتل الخليفة الآمر !!

---

(١) البداية والنهاية : جـ١٢ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ . وسيرة القاهرة : ص ١٤٦ .

الخطر الصليبى

وإذا كانت المجاعات والأزمات الاقتصادية ، التى شهدتها مصر منذ الشدة المستنصرية العظمى ، قد أدت بالخلافة الفاطمية إلى أن تفقد مضمونها وحيويتها وشبابها على يد عهد الوزراء المستبدين ، وسيطرة الأجناد الغرباء عن الفكر والعقل والثقافة العربية ، مما جعلها تعيش شيخوخة طويلة ، استمرت نحو قرن من الزمان ، فإننا نجد بعد وفاة الخليفة المستنصر فى سنة ١٠٩٤م بعدة شهور ، البابا « أربانوس» يعقد مؤتمرًا كنسيًّا فى مدينة « كلرمونت » بالجنوب الشرقى لفرنسا ، ويلقى به فى ٢٦ من نوفمبر سنة ١٠٩٥م أول خطاب يدعو الغرب المسيحى إلى شن الحروب الصليبية على الشرق العربى المسلم [1]، وهى الحروب التى عاشت البلاد العربية الإسلامية أحداثها الجسام والطوال والدامية نحو قرنين من الزمان (١٠٩٧ ـ ١٢٩١م) ، والتى كانت بمثابة الخطر الداهم والغاشم الذى استفز واستنهض عناصر القوة المسلحة فى العالم العربى ، وأسلم زمام الأمور فيه لرجال صناعتهم الجندية والحرب ، بدءوا يواجهون حملات أوربا السبع الشهيرة ، وغزوات الدويلات اللاتينية التى أقامتها هذه الحملات فى المشرق العربى والشمال العربى ، بادئين بدولة صغيرة فى « الموصل » أقامها « عماد الدين زنكى سنة ١١٢٧م ، ومن بعده « نور الدين» (سنة ١١٤٦م) ، الذى اتخذ من « حلب» قاعدة لتقدمه تجاه الصليبيين ، حتى إذا مد نفوذ دولته إلى مصر بواسطة جيش «الغز» والأتراك الذى قاده « أسد الدين شيركوه » و « صلاح الدين الأيوبى » فى سنة ١١٦٩م ـ (٥٦٤هـ) ودانت لجيشه مصر كاملة بعد وفاة الخليفة الفاطمى العاضد سنة ١١٧١م ـ (سنة ٥٦٧هـ) ، أصبحت جميع أنحاء بلاد العرب المسلمين تقريبًا تحت سلطان القادة العسكريين ورهن إشارة الجيوش الجرارة التى وضعت كل الإمكانيات تحت تصرفها كى تتمكن من مواجهة أخطار الصليبيين ، ومواجهة مهام إحراز الانتصار على إماراتهم التى أقاموها فى بلاد الشام ، وحملاتهم

---

(١) تاريخ العرب : جـ٣ ، ص ٧٥٢ .

التى وجهوها مباشرة إلى مصر باعتبارها القلب الذى لا بد من إسكاته ، حتى تستسلم لهم القدس والشام .

فإذا كانت أخطار المجاعات الداخلية فى مصر ، قد أفقدت الخلافة الفاطمية والنظام الفاطمى مضمونه الحقيقى ، وأبقت على الشكل قرابة القرن من الزمان ، فإن الخطر الصليبى الخارجى الذى تحول ـ بعد قيام الإمارات اللاتينية فى الشام ، والغزو الذى حاولته لاحتلال مصر ـ إلى خطر داخلى ، بالنسبة للعالم العربى كله ، قد أفقد هذه الخلافة الفاطمية ، ما تبقى لها من مظاهر وشكليات . وكما استدعى الخليفة المستنصر القائد العسكرى الأرمنى بدر الجمالى ، ليقبض على أزمة الأمور فى سنة ١٠٧٥م ، فلقد استدعى الخليفة الشيعى الفاطمى العاضد جيش نور الدين السنى السلفى ــ الذى « كان قد أذل الشيعة بحلب ، وأبطل شعارهم ، وقوّى أهل السنة »[١] لينقذ مصر من الصليبيين .

وكما وصف المستنصر بدر الجمالى فى مرسوم توليته الوزارة بأنه : « السيد ، الأجل ، الأفضل ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين »[٢] نجد العاضد يصف أسد الدين شيركوه فى مرسوم توليته الوزارة بأنه : « السيد الأجل ، الملك المنصور ، سلطان الجيوش ، ولى الأئمة ، مجير الأمة ، أسد الدين ، كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين! »[٣] . فأمام الأخطار الداهمة ، تراجعت الخلافات المذهبية ، والفكر والاعتقادات ، ولم يعد هناك صوت ولا سلطان سوى صوت الحرب وسلطان الجيوش . ومن ثم ، فإننا لا نغالى إذا قلنا : إن الجولة التى بدأها ضد مضمون الحكم الفاطمى بدر الجمالى ومن جاء بعده من الوزراء ، هى نفس الجولة التى ختمها

---

(١) كتاب الروضتين : جـ١ ، ص ٤٤١ .

(٢) السجلات المستنصرية : ص ١٤٧ .

(٣) كتاب الروضتين : جـ١ ، ص ٤٠٢ .

وانتهى بها إلى نهايتها الطبيعية أسد الـدين شيركوه وابن أخيه صلاح الـدين الأيوبى فيما بين سنتى ١١٦٩م ، ١١٧١م .

أمـا كيف انتهـى الخطـر الصليبـى بالأحـداث التـى بـدأها بـدر الجمالى زمـن المستنصر إلى ما صنعه صلاح الدين الأيوبى بـالعاضد والخلافة الفاطمية عمومًا ، فذلك ما نستطيع تتبع خيوطه إذا نحـن وعينا دلالة هذه الأحداث التى نجملها فى هذه النقاط :

● كانت الحملـة الصليبية الأولى (١٠٩٧ ـ ١٠٩٩ م) قد صـادفت فى المشرق العربـى الضعف العباسـى والسلجوقى والفاطمـى ، مما جعلها تحقـق انتصارات مذهلة ، وتبنى لها مراكز وقواعد هامة فى هذه البلاد .

فلقد طـوقت العالم العربـى من الشمال ، وأقامـت «كونتية الرهـا» شمالى العراق وسـوريا فى سنـة ١٠٩٨م ، تحت حكم الأمير الإقطـاعى «بلـدوين» ابـن كونـت بولونيا .

وفى نفس العـام (سنة ١٠٩٨ م) استطـاع الصليبيون أن يقيمـوا لهم فى الشمال الغـربى لسـوريا قـاعدة جـديـدة تحت اسم « مقـاطعة أنطـاكية » يحكمهـا الأمير الإقطاعى « بوهمند» .

وفى سنة ١٠٩٩م ، استطاع الصليبيـون إقامة « مملكة القـدس» ، التى وصلت حدودهـا من خليـج العقبة على البحر الأحمر إلى السـاحل الفلسطينـى على البحر الأبيض ، بما فى ذلـك ميناء بيروت ، وحاذت نهر الأردن مـن ناحيـة الشرق ، والتى تشبه خـريطتها من النـاحية الإستراتيجية ، خـريطة دولة «إسرائيـل» إلى حد كبير، وحكـم هـذه المملكـة الملـك «جـودفـرى» ، الـذى لقـب «ببـارون القبر المقـدس وحاميه» .

وفى سنـة ١١٠٩م ، استطـاع الصليبيـون أن يخضعـوا عـددًا آخـر مـن المدن الساحلية العـربية ، وأن يقيموا « كونتية طـرابلس» التى حارب فى سبيـل تكوينها الأمير الإقطاعى « ريموند» [١] .

---

(١) تاريخ العرب : جـ ٣ ، ص ٧٥٤ ـ ٧٦١ .

ولقد ظلت شوكة الإمارات الصليبية قوية طوال النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى ، وحتى بعد أن قامت دولة « الأتابكة » فى الموصل على يد عماد الدين زنكى سنة ١١٢٧م ، الذى استطاع أن يحرر شمالى العراق والشمال الشرقى لسوريا من حكم الصليبيين ، عندما أسقط « كونتية الرها » سنة ١١٤٤م. وحتى بعد أن تولى نور الدين مكان عماد الدين سنة ١١٤٦م، وتقدم بمقر عاصمته غربًا إلى حلب تمهيدًا لدخول المعارك الفاصلة لتحرير الأرض العربية الإسلامية ، وبعد أن دخلت إمارة دمشق العربية طوعًا فى دولته سنة ١١٥٤م، حتى بعد هذه التطورات التى كانت تمثل مدًّا عربيًّا إسلاميًّا ، ويقظة أذكت الأخطار الصليبية الاستعمارية مشاعرها ، فإن ميزان القوى بين العرب المسلمين وبين الصليبيين اللاتين لم يكن يسمح لنور الدين بأن يبدأ الزحف الشامل لتحرير كل الأرض ، كما لم يكن يسمح للصليبيين بالاطمئنان إلى أن مقامهم فى هذه الأرض سيكون دائمًا ومستقرًّا دون أن يجرفهم التيار. ذلك ، أن العامل الذى كان لا بد من تحققه كى يحسم هذا التناقض ويستقطب هذا التوازن إلى صالح العرب المسلمين ، كان هو انضمام مصر إلى دولة نور الدين ، وبذلك يطوق الصليبيون من الشرق والشمال ومن الغرب والجنوب ، فيتحدد لهم المصير المحتوم ، وهو العودة إلى أوربا عن نفس الطريق الذى جاءوا منه : مياه البحر المتوسط !!

ولم تكن مصر تعنى فى هذه العملية إمكانياتها الكبرى وحدها ، بل لقد كانت تمثل الطريق لمساعدات أدبية ومادية يمكن أن تأتى من المغرب ، الذى كانت تحكمه إذ ذاك دولة « الموحدين » ، وهى الدولة التى كانت شديدة الحماسة لإزالة الحكم الصليبى فى المشرق العربى ، لأن كيانات الصليبيين وانتصاراتهم هذه كانت تشد أزر المسيحيين أعداء « الموحدين » فى شمالى بلاد الأندلس .

ومن هنا ، كان الصراع المرير ، البارد حينًا والساخن حينًا آخر ، بين الصليبيين وبين نور الدين على امتلاك مصر ، وأحيانًا كانت تراود الصليبيين أحلام امتلاكها ، وأحيانا تتواضع هذه الأحلام لتقف عند حدود التحالف مع النظام الفاطمى المتهالك فيها وفرض الإتاوات المالية عليها ، وأحيانًا أخرى كانت

تتواضع هذه الأحلام درجة ثالثة ، لتقف عند حدود التمنى لأن تبقى مصر بمعزل عن أيـدى نور الـدين ، حتى ولـو لم تخضع خضـوعًا مبـاشرًا أو غير مباشر لهم ، شريطة أن تظـل أمورها فـوضى ، حتى لا تستيقظ اليقظـة التى تجعلها تمد يـدها وإمكانياتها ، تلقائيًا ، لأشقاء المشرق فى المعركة المشتركة ضد الصليبيين .

● وعندما توارت هيبة الخلافة الفاطمية ، وفقدت مضمونها على يد بدر الجمالى فى سنة ١٠٧٥م ، وتـولى مكانه ابنه الأفضـل سنة ١٠٩٤م ـ (سنـة ٤٨٧ هـ) ، ليقتله المأمون البطـائحى فى سنة ٥١٥ هـ ـ (سنة ١١٢١م) ، ثـم ليعود ابنه أحمد ابن الأفضـل ليثأر لأبيه بقتل المأمـون البطائحى وتـولى الوزارة ، ثم ليأتـى الخليفة الحافظ المغلـوب على أمره ليقتـل أحمد بن الأفضل ، ويـولى الوزارة مكـانه الـوزير الأرمنى المسيحى بهرام ، فيدور الصراع بين بهرام هذا وبين رضـوان بن الولخشى ، لينتهى هـذا الصراع بمقتل رضوان وتحول بهرام من وزيـر إلى مجرد مستشار فى قصر الخليفـة ، وذلك ليعـود الصراع على الـوزارة مرة أخـرى فى عهـد الخليفـة الظافـر (١١٤٩ـ ١١٥٤م ، ٥٤٤ـ ٥٤٩ هـ) بين كل من ابن السلام وابن مصال !!

ولما كانت فترة الصراع بين ابن السلام وابن مصال على الوزارة ، هى الفترة التى أخذ فيها نجم « الدولة النورية » فى المشرق فى العلو والارتفاع ، فلقد نبتت فى هذه المرحلة فكرة الاستعانة بنور الديـن وجيشه ونفوذه فى هذه الصراعات . ومن ثم ، استيقظت أكثر فـأكثر عيون الصليبيين لمصر ولما لها من إمكانيات ، ومـا تمثله من أخطار إذا هى أضحت امتدادًا لدولة نور الدين فى الغرب والجنوب .

ولقد انتهى النـزاع المسلح بين ابن السلام وابن مصال بمقتـل الأول ، ثم لحقه الثانى بعد قليل ، بل لقد لحقهما الخليفة مقتولاً هو الآخر على يد رابع ، عاد فقتل هو وأولاده بعد قليل !!

ثم تسلم الوزارة وزير لقب نفسه « بالملك الصالح » ، هو طلائع بن رزيك ، الذى عين الخليفة العاضد سنة ١١٦٠م ـ (سنة ٥٥٥ هـ) بعد أن مات الفائز ، ليعود العاضد فيقتله ، ويولى الوزارة بدلاً منـه ابنه العادل ، الذى خلعه ، ثم قتله

أمير الصعيد «شاور» الذى تولى الوزارة ليدخل حلقة جديدة ، ولكنها أخيرة ، من الصراع ضد « ضرغـام» ، وليدخـل جيش نور الـدين إلى مصر فى عهـدهما ثلاث مرات ، كانت :

أولاها : ١١٦٣م ـ (٥٥٩ هـ) استجـابـة لطلـب « شاور» فى صراعـه ضـد «ضرغام» الذى استعان بالصليبيين . وبعد قتال دار بين الجيشين ، عادا إلى فكرة التوازن ، واتفقا معًـا على إخلاء البلاد . وفى هذه الحملة ، قتل أحـد جنود الشام «ضرغام » الذى هام على وجهه بعد هزيمتـه ، فخرج « من باب زويلة ، والعامة تلعنه وتصيح عليه » ، كما قتل ابنه على يد « شاور » [١] .

وثانيتها : ١١٦٦م ـ (٥٦٢ هـ) لمقاومـة الصليبيين الذيـن حضروا هذه المرة بدعوة من « شاور» ، الذى خاف نور الدين ، بعد أن نقض ما تعهد له به من مال فى الحملـة الأولى . وبعد قتـال دار بين الجيشين ، عادا ثـانيـة إلى فكرة التـوازن ، واتفقـا على الانسحـاب من البـلاد . ولكـن شـاور استطـاع هذه المرة أن يـرغـم السلطان العـاضد على أن يكـون للصليبيين فرسان يقيمـون على أبواب القـاهرة ، «والمفاتيح معهم » ! وأن تدفع البلاد جزية لهم !

وثالثتها : ١١٦٨م ـ (٥٦٤ هـ) ، وكانـت مناسبتهـا هذه المرة ، أن اللعبـة الخطرة التى أخـذ وزراء البلاط الفـاطمى وقـواده يمارسونها ، قـد جعلت بعـض المنـافسين لشاور مـن أمثـال « يحيى بـن الخيـاط » و « ابن قـرجلـة » يتفقون مـع الصليبيين على غـزو البلاد . وحـاول شـاور الاستمـرار والمضى فى ذات اللعبـة ، فصالـح الصليبيين على أن يدفع لهم ١,٠٠٠,٠٠٠ دينار مصريـة فى نظير رجوع جيشهم ، وذلك « بعد أن أخبرهم أن هواه مـع التسليم لهم ، ولا يمنعه من ذلك إلا الخوف من نور الدين ، والعاضـد ، وعدم موافقة المسلمين » . وكان يسميهم «الفرج» ، لا « الفرنج» !!

---

(١) كتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٤٢٠ .

ولكن العاضد بعث برسالة سرية إلى نور الدين يستدعى جيشه ، وجعل داخل أوراق الرسالة « خصلات » من شعور أميرات البيت الفاطمي ، وكتب فيها : « هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج » . كما تعهد له بأن يكون له ثلث بلاد مصر ، وذلك غير إقطاعات جيش أسد الدين شيركوه الذى طلب إقامته الدائمة فى البلاد .

وعندما وصل جيش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه ، وصحبه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى ، وهزم الصليبيين ، ووصل القاهرة فى ٤ من ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ (سنة ١١٦٨ م) ، أراد شاور أن يدبر مؤمراة لاغتيال أسد الدين ، فنهاه عن ذلك ابنه الكامل ، ثم عجل صلاح الدين باغتيال شاور فى ١٧ من ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ ، فتولى الوزارة بدلاً منه أسد الدين شيركوه ، الذى خلع عليه العاضد ، ولقبه « بالملك المنصور أمير الجيوش » . وأصدر لتوليه الوزارة منشورًا قرىء على منابر المساجد ، جاء فيه : « من عبد الله ووليه أبى محمد ، العاضد لدين الله ، أمير المؤمنين ، إلى السيد الأجل ، الملك المنصور ، سلطان الجيوش ، ولى الأئمة ، مجير الأمة ، أسد الدين ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، أبى الحارث شيركوه العاضدى . عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام قدرته وأعلى كلمته . . هذا عهد لا عهد لوزير بمثله ، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحمله ، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت (انتسبت) خدمتك إلى بنوة النبوة ، واتخذه للفوز سبيلاً . ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً »[1] .

واستدعى أسد الدين القاضى الفاضل ، ليتولى له شئون ديوان المكاتبات والإنشاء ، وأقطع بلاد مصر للجنود الذين قدموا معه[2] . وتنفست البلاد الصعداء

---

(١) كتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٣٨٩ـ ٤٠٣ .

(٢) المصدر السابق : جـ ١ ، ص ٤٠٢ .

بزوال الخطر الصليبى عنها ، وبإنقاذها من فوضى الصراعات التى كانت لا تنتهى ولا تهدأ على المناصب والوزارات . ومدح الشعراء الوزير الجديد ، وصبوا لعناتهم على الوزير المقتول ، وقال الشاعر العرقلة « أبو الندى حسان بن نمير الكلبى » (٤٨٦ ـ ٥٦٧ هـ) فى أسد الدين :

هو الأسدُ الضَّارى الذى جلّ خطْبهُ ... و « شاورُ » كلبٌ للرِّجال عقورُ
بغى وطغى ، حتّى لقد قال قائلٌ ... علَى مثلها كان اللَّعينُ يَدُورُ [١]

● وفى الوقت الذى كان العاضد يظن ويحسب أن أسد الدين وجيشه لن يكونا بالنسبة للخلافة الفاطمية الشيعية أكثر مما كان بدر الجمالى وجيشه ، وأن مظاهر الخلافة وشكلياتها وخاصة أشخاص خلفائها ، ستظل على الأقل دون تغيير ، فى ذلك الوقت كان الرأى العام فى الشام ، الذى جهز لأسد الدين هذا الجيش ، يطلب إليه تغيير أوضاع مصر تغييرًا جذريًّا ، وإزالة الخلافة الفاطمية ، وتوحيد مصر والشام توحيدًا عضويًّا ، لأن المعركة الملحة ضد الصليبيين تقتضى ذلك ، ولا تحتمل البطء فيه ، بل وباعتبار هذه المعركة هى التى أملت ذهاب هذا الجيش إلى هذه البلاد . وعن كل ذلك يعبر الشاعر عماد الدين الكاتب فى تهنئته لأسد الدين ، عندما يقول :

فتحت مصر وأرجو أن تصير بها ... ميسرا فتح بيت القدس عن كثب
رد الخلافة عباسية ودع الدعى ... فيها يصادف شر منقلب
لا تقطعن ذنب الأفعى وترسله ... فالحزم عندى قطع الرأس كالذنب [٢]

● وبعد وزارة دامت شهرين وخمسة أيام ، توفى أسد الدين شيركوه فى ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ ، بسبب كثرة الأكل ، وشدة « المواظبة على تناول

---

(١) المصدر السابق : جـ ١ ، ص ٣٩٩ .
(٢) المصدر السابق : جـ ١ ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

اللحوم الغليظة » ، مما أدى إلى أن « اعتراه خانوق عظيم ، فقتله ، رحمه الله » [1] ! !
فتولى الوزارة بعده صلاح الدين الأيوبى (١١٣٧ - ١١٩٣م ، ٥٣٢ - ٥٨٩هـ) فى ٢٥ من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ ، وخلع عليه الخليفة العاضد خلعة الوزارة ، وكانت « عمامة بيضاء تنيسى بطراز ذهب ، وثوب دبيقى بطراز ذهب ، وجبة تحتها سقلاطون بطراز ذهب ، وطيلسان بطراز دقيق ذهب ، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار ، وسيف محلى بجوهر قيمته خمسة آلاف دينار ، وفرس حجْر - (أنثى) - صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالديار المصرية أسبق منها ، وطوق ، وتخت ، وسرفسار ذهب مجوهر ، وفى رقبة الحجر مشدة بيضاء وفى رأسها مائتا حبة جوهر ، وفى أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر، وقصبة ذهب فى رأسها طالعة مجوهرة وفى رأسها مشدة بيضاء بأعلام ذهب . ومع الخلعة عدة بقج ، وعدة من الخيل ، وأشياء أخر ، ومنشور الوزارة ملفوف فى ثوب أطلس أبيض» [2] ! !

وظلت أصوات دمشق والشام تلح على صلاح الدين - كما ألحت من قبل على أسد الدين شيركوه - أن يزيل من مصر خلافة الفاطميين ، ولكن صلاح الدين قد آثر التريث حتى يعلم موضع قدميه وأقدام جيشه فى هذه البلاد ، لأنه كان يشعر بشىء من الخطر الذى يخشاه من جانب النظام الفاطمى . وعلى حد تعبيره ، فإن جنوده « وإن ملكوا ، ونالوا مقاصدهم وأدركوا » ، فإنهم يعيشون « بين أمة لا يعرفونها ، بل ينكرونها ولا يألفونها » ، وأنهم حيثما ذهبوا يرون « وجوهًا هناك بهم عابسة ، وأعينًا للمكائد متيقظة ، وعن الود ناعسة ! » [3].

وذلك ، لأن المجتمع المصرى العربى قد كان ينظر إلى هؤلاء الجنود « الغز والأتراك» نظرة المنقذ من خطر الفرنج ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يجد بعد جسورًا

---

(١) المصدر السابق : جـ ١ ، ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ .
(٢) المصدر السابق : جـ ١ ، ص ٤٣٩ .
(٣) المصدر السابق : جـ ١ ، ص ٤١٠ .

حضارية عميقة وسهلة تصل حياته بحياتهم ، ولا أن ينسى أن أرضه قد أصبحت لهم إقطاعات . ولقد كان الكثيرون من جنود جيش صلاح الدين وقادته يدركون ذلك ، ونحن نجد لبعضهم عبارات ذات دلالة بالغة الأهمية فى هذا الصدد ، عندما قالوا لأسد الدين شيركوه أثناء مجيئهم فى المرة الثانية إلى مصر سنة ١١٦٦م ـ (سنة ٥٦٢هـ) : إن « كل من فى هذه الديار من جندى وعامى وفلاح عدو لنا ، ويودون لو شربوا دماءنا » (١) .

ولم يكن سوى الخطر الصليبى الداهم والغاشم هو الذى أوجد الأرضية المشتركة بين المجتمع المصرى العربى المتقدم نسبيًّا ، وبين هؤلاء الأجناد « الغز والأترك » الذين لم تكن توجد ، حتى هذه الفترة ، لغة حضارية مشتركة بينهم وبين المصريين ، لأنهم لم يكونوا أهل حضارة ولا تقدم ولا شىء لديهم من هذا القبيل .

غير أن صلاح الدين الأيوبى ، قد أخذ فى التمهيد التدريجى لإزالة حكم الفاطميين نهائيًّا من البلاد ، لا على أن تتبع دولة نور الدين بالشام ، وإنما على أن يستقل هو بها ، كخطوة نحو أن تتبعه وتتبعها دولة نور الدين التى بالشام !!

وعندما انتصر على الأسطول الصليبى الذى جاء لاحتلال البلاد ، والذى نزل فى دمياط أول شهر صفر سنة ٥٦٥ هـ ـ (سنة ١١٦٩م) (٢) ، فأقام بمياهها خمسين يوماً ، كان يقترب بذلك الانتصار من قلوب المجتمع المصرى ، بقدر اقتراب الخطر الصليبى من هذا المجتمع .

وعندما أخذ فى سنة ٥٦٦ هـ ـ (سنة ١١٧٠م) يقيم المدارس السنية السلفية ، بادئاً بمدرسة للشافعية فى أول العام ، وبأخرى للمالكية فى منتصف شهر المحرم ،

---

(١) كتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٣٦٤ .
(٢) المصدر السابق : جـ ١ ، ص ٤٥٧ .

وبثالثة للشافعية كذلك فى منتصف شهر شعبان [1] وهكذا دواليك ، كان يضع الأرضية الفكرية التى سيقوم عليها هذا التغيير.

وعندما عزل فى العام نفسه « قضاة مصر لأنهم كانوا شيعة ، وولى قضاء القضاةبها لصدر الدين عبد الملك بن درباس المارداني الشافعى فاستناب فى سائر المعاملات قضاة شافعية » [2] ، كان يضمن إلى جانبه سلطات وأجهزة ضخمة تعينه على إجراء هذا التغيير .

وبعد ذلك ، استطاع صلاح الدين أن يقيم الخطبة للخليفة العباسى ، بدلاً من العاضد ، فى الإسكندرية أولاً ، ثم فى الفسطاط ، ثم بعد ذلك فى القاهرة ، قبل أسبوع من وفاة العاضد ، الذى قيل إنه امتص سماً كان قد وضعه تحت فص خاتمه ، عندما علم بقطع الخطبة له ، وكان يومئذ مريضاً ملازماً لفراشه ، فمات فى يوم عاشوراء سنة ٥٦٧ هـ (سنة ١١٧١م) [3] . وبموته هذا ، انتهت خلافة الفاطميين ، التى دامت فى مصر أكثر من قرنين من الزمان ، قضت أحدهما قوية عزيزة ذات حضارة ضربت جذورها فى أعماق المجتمع ، الذى كان قد أصبح يومئذ مجتمعاً عربيًّا كامل التعريب ، وقضت الآخر ضعيفة الجانب . حتى جاءتها سلطة صلاح الدين الأيوبى ودولته الجديدة الشابة ، كى تبدأ معها وبها صفحة من النضال ضد الغزاة الصليبيين ، برغم اختلاف المضمون الفكرى والفلسفى الذى ميز ما بين خلافة الفاطميين وسلطنة الأيوبيين . ولتكتب فى تاريخ نضالها صفحات من البطولة ، لعلها أروع ما حفل به هذا التاريخ من صفحات فى تلك العصور.

(١) المصدر السابق : جـ ١ ، ص ٤٨٦ .

(٢) البداية والنهاية : جـ ١٢ ، ص ٢٦٣ .

(٣) كتاب الروضتين : جـ ٢ ، ص ٤٩٢ ، ٤٩٩ ، ٥٠٤ .



الفصل العاشر

سنّية الأيوبيّين تمحو آثار الفاطميّين

● دراسة للعقبات التى اعترضت صلاح الدين الأيوبى فى جهوده الرامية كى يعيد النظام والدولة السنية إلى مصر الشيعية . . وكيف تم له ذلك . . والأسلحة الفكرية ، والنشاط العسكرى الذى استخدمه .

أشواك على طريق صلاح الدين

وإذا كانت الأخطار الخارجية التى كانت تتهدد مصر والقاهرة ، مضافاً إليها فوضى الاضطرابات الداخلية التى عاشتها البلاد تحت حكم الفاطميين الأخير ، قد جعلت الإنسان المصرى - وهو الذى أجبر طويلاً وكثيراً على أن يقف الموقف السلبى إزاء أحداث السياسة فى عاصمة بلاده - قد جعلته يفتح قلبه ويمنح عاطفته لذلك القائد الجديد ، صلاح الدين الأيوبى ، فإن بقايا الجنود الفاطمية ، وكل الفئات التى كانت تنتفع من بقاء هذه الخلافة التى غربت شمسها ، ما كان لها أن تستسلم لهذا المصير الذى صنعه بها وبمصالحها المادية والأدبية صلاح الدين . ومن هنا ، كان لابد من صراعات يخوضها النظام الأيوبى ضد بقايا النظام الفاطمى ، وكان لابد لمصر أن تشهد عدة فصول من هذا الصراع .

● فصلاح الدين الأيوبى ، الذى لم يكن يثق بجند الخليفة العاضد ، ولا يطمئن إليهم ، والذى كان يتحدث عنهم فيقول : « إن أجناد مصر كانوا فى الدين (يقصد المذهب) مخالفين ، وعلى عقيدتهم محالفين »[1]، قد بدأ صراعه مع هؤلاء الجند وقادتهم حتى قبل وفاة الخليفة العاضد ، وذلك عندما أبطل إقطاعهم ، ليحل محلهم فيها جنود جيشه ، مما جعل قائد الجند السودانيين فى بلاط العاضد ، والمسمى « مؤتمن الخلافة » يدبر مؤامرة للتخلص من صلاح الدين ، فكتب رسالة سرية بعث بها إلى الصليبيين يستدعيهم لمصر ، ولكن صلاح الدين ضبط الرسالة والرسول ، فقتل «مؤتمن الخلافة » فى ٢٥ من ذى القعدة سنة ٥٦٤ هـ (سنة

---

(١) كتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٤١٠ .

١١٦٨م) ، فانفجرت ثورة جنوده السودان ، وكان تعدادهم خمسين ألف جندى ، يسكنون حيا خاصًا بهم عند باب زويلة يسمى « المنصورة » ، فأرسل إليهم صلاح الدين بعض فرق جيشه بقيادة أخيه « شمس الدولة » ، الذى هزمهم فى ٢٨ من ذى القعدة سنة ٥٦٤ هـ . ولم يكن بوسع الخليفة العاضد إلا أن يؤيد صلاح الدين فى هذا ، وأن يتحدث إلى شمس الدولة فيقول له : « أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول : « دونكم والعبيد الكلاب ، أخرجوهم من بلادكم ! »[(١)].

وعندما هزم الجند السودان ، فر من نجا منهم من القتل إلى أطراف الصعيد ، وهدم صلاح الدين منازلهم ، وحرقها ، وحوّل مكانها إلى منتزه ! وأنشد عماد الدين الكاتب لصلاح الدين ، فى هذه المعركة قصيدة قال فيها :

مؤتمن القوم خان حتى غالته من شره غوائل[(٢)]

● ثم حدث أن تمرد رجل يدعى عباس بن شادى ، الذى زحف بأنصاره من بلدة « طود» إلى مدينة « قوص » ، وهناك أعلن تمرده وعصيانه ضد الدولة الجديدة . فأرسل إليه صلاح الدين الجنود التى هزمته وكسرت شوكة أنصاره[(٣)].

● ثم حدثت أحداث تلك المؤامرة وذلك التمرد الذى ارتبط فى تاريخ هذه الفترة باسم الشاعر الكبير عمارة اليمنى ، الذى قبض عليه هو وشركاؤه فى يوم السبت ٢ من رمضان سنة ٥٦٩ هـ (سنة ١١٧٣م) .

والحقيقة ، أن حديث هذا الشاعر وهذه المؤمراة ضد حكم صلاح الدين ، إنما يصور تصويرًا دقيقاً موقف تلك الفئة من بقايا الحكم الفاطمى ، الذين كانوا يعيشون على عطايا الفاطميين وهباتهم وإقطاعاتهم ، والمصير الذى واجههم بالفقر والفاقة وعدم الثقة من جانب السلطان الجديد .

---

(١) المصدر السابق : جـ١ ، ص ٤٥٠ ـ ٤٥٢ .
(٢) المصدر السابق : جـ١ ، ص ٤٥٣ .
(٣) المصدر السابق : جـ١ ، ص ٦٠١ ، ٦٠٢ .

وإذا كانت مجموعة كبيرة من الذين صلبوا مع عمارة فى هذه المؤامرة ، هم بالتأكيد ذوى ميول شيعية أو متشيعين تماماً ، لا يرتاحون للسلطة السلفية والفكرية السنية التى سودها صلاح الدين ، مثل قاضى قضاة الفاطميين أبى القاسم هبة اللهبن عبد الله بن كامل ، ومثل عبد القوى ، داعى الدعاة ، ومثل العويرس ، ناظر الديوان ، ومثل شبريا ، كاتب السر ، ومثل عبد الصمد ، الكاتب ، ونجاح الحمامى [1] ومثل عبد الصمد القشة ، أحد الأمراء الفاطميين ، فإننا لا نعتقد أنهم قد ثاروا وتآمروا لأسباب فكرية وعقائدية بحتة ، وإلا لما كان تآمرهم مع الصليبيين ولحسابهم ، ولقاءاتهم مع « جورج » رسول « الفرنج » الذى كان يحضر إلى القاهرة وظاهر أمره أنه فى مهام من قبل الصليبيين إلى صلاح الدين ، وباطن أمره اللقاء والاتفاق مع المتآمرين ، وإلا لما اعترف المتآمرون أنفسهم بعد القبض عليهم «واعتذروا بكونهم قطعت أرزاقهم وأخذت أموالهم » [2] .

وأكثر من ذلك ، فإن عمارة اليمنى هذا لم يكن شيعيًّا ، وإنما كان فقيها شافعيا ، مذهبه السلفى هو نفس مذهب صلاح الدين ، ولكنه كان شاعر القصر الفاطمى ، وهو يصور علاقته بهذا البلاط فى أشعار كثيرة ، منها تلك القصيدة التى يصف فيها حالته وموقفه بين الفاطميين وبين صلاح الدين ، فيقول :

تيمَّمتُ مصراً أطلب الجاه والغِنَى ... فنلتُها فى ظلِّ عيشٍ ممنَّعِ
ملوكٌ دعَوْا لى حُرمةً صار نبتُها ... هشيماً رعتْه النائباتُ وما رُعِى
مذاهبُهم فى الجودِ مذهبُ سُنَّةٍ ... وإنْ خالفونى فى اعْتقادِ التَّشَيُّعِ !

ثم يمضى ليصور المصير الذى انتهت حالته إليه ، فيقول :

---

(١) البداية والنهاية : جـ١٢ ، ص ٢٧٥ .

(٢) كتاب الروضتين : جـ١ ، ص ٥٦١ ، ٥٦٤ .

فقُلْ لصلاحِ الدين ، والعدلُ شأنُه : مَن الحاكمُ المُصْغِى إلىّ فأدعى ؟
أقمتُ لكُمْ ضيفًا ثلاثةَ أشهرٍ أقولُ لصدرى كلّما ضاق : وسّعِ
فيا راعِىَ الإسلامِ كيفَ تَركْتَنا فريقى ضَياع : مِن عرايا ، وجوّعِ[1]؟!

فهى إذن الأموال والإقطاعات والأرزاق التى حركت هؤلاء الذين خرجوا على صلاح الدين . ولذلك ، فإنهم عندما يكاتبون الصليبيين يحددون فى رسائلهم الطوائف والفئات التى ستقف ضد صلاح الدين ، وهم : حاشية القصر ، وجميع الجند السابقين ، وطائفة السودان ، وجموع الأرمن ، وجميع الإسماعيلية (الشيعة)[2].

ويبدو أن معظم هذه الفئات ، ونموذج لها عمارة اليمنى ، قد حاولت أن تصل حبال حياتها بالنظام الجديد ، وأن تربط عجلتها ببيت ماله وإقطاعاته ، ولكن صلاح الدين وجنده ، « الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية ، وخافوا على فوت ذلك منهم »[3]، لم يكونوا على استعداد لشىء من هذا القبيل . فلقد مدح عمارة اليمنى كلاًّ من صلاح الدين الأيوبى ، ووالده نجم الدين ، وطالما أشاد بإنقاذهما مصر من الفوضى ومن الصليبيين . بل لقد قال الكثير من الشعر الرائع فى مدح انتصارات صلاح الدين على الأسطول الصليبى ، الذى غزا دمياط فى سنة ٥٦٥ هـ (سنة ١١٦٩م) . ونحن نجده يحث صلاح الدين على غزو بيت المقدس ، بعد أن تمكن من فتح أحد حصون الفرنج فى فلسطين ، فيقول له :

---

(١) المصدر السابق : جـ١ ، ص٥٦٨ .
(٢) المصدر السابق : جـ١ ، ص٥٦٤ .
(٣) المصدر السابق : جـ١ ، ص٦٠٠ .

وهَيّجْتَ للبيْتِ المُقدَّسِ لوعةً — يطولُ بها منه إليكَ التشوُّقُ
وغَزْوُكَ هذا سُلّمٌ نحو فتْحِهِ — قريبًا، وإلاَّ رائدٌ ومطرّقُ
هوَ البيْتُ ، إن تفْتحْه ، واللهُ فاعِلٌ — فما بَعْدهُ بابٌ منَ الشَّامِ مُغْلقُ [1]

فالمال إذن ، والإقطاعات الملغاة ، هى التى دفعته ، كما دفعت زملاءه إلى هذا الموقف المخزى ، الذى مدوا فيه أيديهم للتحالف مع « الفرنج » ضد صلاح الدين .

كما أن هذا الشاعر قد ساءته فعال أمراء صلاح الدين بسكان القصر الفاطمى ، وحالة البؤس والمذلة التى وصل إليها أولئك الذين بقوا من نسلهم ، وكيف عزلت نساؤهم عن رجالهم لينقطع هذا النسل ! فصور ذلك فى القصيدة التى كانت من مبررات إعدامه ، عندما قال :

وما عسَى كانتِ الإفْرنج فاعلةً — فى نسلِ آلِ أميرِ المؤمنينَ عَلى ؟!
هلْ كان فى الأمرِ شىءٌ غيرُ قِسْمةِ ما — مَلَكْتُموا بينَ حُكْمِ السَّبْىِ والنَّفَل [2]؟!

ولقد صور أبو شامة حال عمارة اليمنى هذا أيام صلاح الدين تصويراً دقيقاً ، عندما قال إنه « كان مستشعراً من « الغز» ، وهم أيضاً منه ، لأنه كان من أتباع الدولة المصرية ـ (الفاطمية) ـ وممن انتفع بها واختل أمره بعدها ، فلم تصف القلوب بعضها لبعض . وصار يظهر فى فلتات لسانه ، فى نظمه ونثره، ما يقتضى التحرز منه وإبعاده ، وهو يرى ذلك منهم فيزداد فسادنية . . وقال فى كتاب (الوزراء المصرية) (عن الفاطميين) : ذكر الله أيامهم بحمد لا يكل نشاطه . ولا يطوى بساطه ، فقد وجدت فقدهم ، وهنت بعدهم » [3].

---

(١) المصدر السابق : جـ ١ ، ص ٤٩٢ .
(٢) خطط المقريزى : جـ ١ ، ص ٤٩٥ .
(٣) كتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٥٦٦ ، ٥٦٧ .

● وفى سنة ٥٧٠ هـ ـ (سنة ١١٧٤م) ، تجمعت الجند السودانية الذين نجوا من معركة القاهرة سنة ٥٦٤ هـ ، ولملموا شملهم وأعلنوا الثورة فى « أسوان» بقيادة زعيمهم الجديد المسمى « بالكنز» ، الذى كان يحكم مدينة أسوان ، ولكن الدائرة قد دارات عليهم مرة أخرى وأخيرة فى المعركة التى انتصرت فيها قوات صلاح الدين ضدهم فى ٧ من صفر من العام نفسه بموقعة « قوص »[1] .

المدارس السلفية

وكما اجتهد صلاح الدين فى القضاء على بقايا الجند والأمراء الفاطميين ، كذلك عمل لملء الفراغ الفكرى الذى تخلف عن ذهاب حكمهم ، فكانت حركة التصوف التى شجعتها الدولة الجديدة كإسهام فى سد الفراغ الفكرى ، الذى قام بعد زوال خلافة عقائدية . ولكننا نعتقد أن هذا لم يكن الجهد المنظم الذى بذله الأيوبيون لسد هذا الفراغ ، وإنما كان الجهد المنظم فى هذا الميدان هو ذلك الاهتمام غير العادى ، والعمل الدءوب والبنّاء والمثمر الذى بذلوه فى فتح العديد من المدارس السنية السلفية ، كى تعيد صياغة أيديولوجية المجتمع ، وتحل محل الأزهر الشيعى ودار الحكمة وأجهزة الدعوة والدعاة التى عرفها الفاطميون .

وعندما تولى صلاح الدين زمام الأمور ، لم يكن بالقاهرة مدرسة سنية واحدة ، بل لم يكن بالدولة المصرية سوى مدرسة سنية واحدة فى الإسكندرية ، أقامها الوزير « ابن السلار» سنة ٥٤٦ هـ ـ (سنة ١١٥١م) .

والذين يقرءون تاريخ دخول الأيوبيين إلى مصر ، يلاحظون أن التيار السنى السلفى كان عالى الصوت فى مدينة الإسكندرية عند دخولهم إلى البلاد ، ولعل صلاح الدين قد لاحظ أثر المدرسة السنية التى كانت قائمة فى الإسكندرية ، والتى كان يرعاها أحد أئمة الحديث : الحافظ السلفى يومئذ حيث كان لها أثرها فى هذا

(١) المصدر السابق : جـ١ ، ص ٦٠٠ ، ٦٠١ .

الموضوع . فنحن نجد أسد الدين شيركوه ، يكتب « إلى أهل الإسكندرية يستنجدهم على شاور لأجل إدخاله « الفرنج » إلى دار الإسلام ، وتضييعه أموال بيت مال المسلمين » (١) . كما نجد صلاح الدين ، الذى حوصر بجيشه داخل الإسكندرية ثلاثة أشهر ، فى جولتهم الأولى بمصر، وقبل أن يستقر بهم المقام ، نجده عندما يغادرها إلى الشام قد « استحلف شاورًا لأهلها بألا يعرض لهم بسوء» . ولكن شاورا ينقض هذا الاتفاق ، فلقد قبض « على ابن مصال وجماعة ممن أعان صلاح الدين ، وضيق عليهم ، وتتبع أهل الإسكندرية » . فيتحدث صلاح الدين إلى ملك « الفرنج » ـ الطرف الثالث فى المعاهدة ـ فى ذلك ، فيبعث ملك الفرنج إلى شاور يلزمه « يمينًا أخرى فى ألا يعرض لأحد ممن لجأ إلى أسد الدين أو صلاح الدين » (٢).

ولا بد أن تكون هذه الآثار السياسية ، ذات الصلة الوثيقة بالبيئة الفكرية التى خلفتها هذه المدرسة السنية ، فى مقدمة الحوافز التى جعلت صلاح الدين ، وكل سلاطين الأيوبيين من بعده يركزون جهدهم فى ميدان الفكر على إنشاء المدارس السلفية السنية التى بلغت فى عهدهم ، فى القاهرة ، خمس عشرة مدرسة . هى :

١ ـ المدرسة الناصرية : وهى التى أنشئت بجانب ضريح الإمام الشافعى فى سنة ٥٦٦ هـ ـ (سنة ١١٧٠ م) لتدريس الفقه الشافعى (٣) .

٢ ـ المدرسة القمحية : وهى التى أقيمت سنة ٥٦٦ ـ (سنة ١١٧٠ م) فى دار الغزل ، وسميت بذلك نسبة للقمح الذى كان ينفق عليها من ضيعة أوقفت لها بالفيوم (٤).

---

(١) كتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٤٢٦ .

(٢) المصدر السابق : جـ ١ ، ص ٤٢٨ .

(٣) المصدر السابق : جـ ١ ، ص ٤٨٦ . والقاهرة : تاريخها وآثارها ، وسيرة القاهرة : ص ٢٥٤ .

(٤) كتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٤٨٦ . وسيرة القاهرة : ص ٢٥٤ .

٣ ـ المدرسة القطبية : وهى التى أنشئت سنة ٥٧٠ هـ ـ (سنة ١١٧٤ م) .

٤ ـ مدرسة ابن الأرسوفى : والتى أنشئت فى سنة ٥٧٠ هـ ـ (سنة ١١٧٤ م) .

٥ ـ مدرسة السيوفية : أو مدرسة سيف الدين ، ولقد بنيت للأحناف ، وكانت بجوار الحسين ، حول قصر المأمون القديم [1] ولقد أنشئت سنة ٥٧٢ هـ ـ (سنة ١١٧٦م) .

٦ ـ المدرسة الفضيلية : وهى التى شيدها القاضى الفاضل سنة ٥٨٠ هـ ـ (سنة ١١٨٤م) ، للشافعية والمالكية .

٧ ـ مدرسة أشكشية : وهى التى أقيمت سنة ٥٩٢ هـ ـ (سنة ١١٩٥م) .

٨ ـ المدرسة الغزنوية : وهى التى أقيمت سنة ٥٩٢ هـ ـ (سنة ١١٩٥م) .

٩ ـ المدرسة العادلية : نسبة للسلطان العادل الأول سيف الدين ، والتى أنشئت بعد سنة ٥٩٥ هـ ـ (سنة ١١٩٨م) .

١٠ ـ المدرسة الشريفية : نسبة لقاضى العسكر الشريف شمس الدين الأرموى ، الذى درس فيها ، كما درس فى المدرسة الناصرية ، وهى التى أنشئت سنة ٦١٢هـ ـ (سنة ١٢١٥م) .

١١ ـ المدرسة الكاملية ، أو دار الحديث : وكانت تقع فى منطقة بين القصرين ، ولقد أنشئت سنة ٦٢٢ هـ ـ (سنة ١٢٢٤م) [2].

١٢ ـ المدرسة الفخرية : وهى التى أنشئت سنة ٦٢٢ هـ ـ (سنة ١٢٢٤م) .

١٣ ـ المدرسة الصيرمية : وهى التى أنشئت سنة ٦٣٦ هـ ـ (سنة ١٢٣٨م) .

١٤ ـ المدرسة الفايزية : وهى التى أنشئت سنة ٦٣٦ هـ ـ (سنة ١٢٣٨م) .

---

(١) سيرة القاهرة : ص ١٦٤ ، ٢٥٤ .

(٢) المصدر السابق : ص ٢٥٤ . والقاهرة : تاريخها وآثارها .

١٥ ــ المدرسة الصالحية : نسبة للملك الصالح ، وهى التى أنشأها بين القصرين سنة ٦٣٩ هـ (سنة ١٢٤١م) [١].

والأمر الذى يعطى المزيد من الأهمية لهذه المدارس التى أقامها الأيوبيون ، أن كل واحدة منها إنما كانت مؤسسة علمية كبيرة ، لها من الإمكانات الفكرية والمادية ما يتيح لها أن تؤدى دورًا هامًّا فى الحياة الفكرية للبلاد . وحتى نعلم كيف كان لمدرسة الإسكندرية ، التى أشرنا إليها ، ذلك الأثر الذى أشرنا إلى بعضه ، ونعلم كذلك تلك الآثار التى أحدثتها هذه المدارس الأيوبية ، يكفى أن نعلم أن ابن جبير عندما زار مصر فى سنة ٥٧٨ هـ (سنة ١١٨٣م) ، وجد العمل لا يزال جاريًا فى بناء المدرسة الناصرية التى بدأ إنشاؤها فى سنة ١١٧٠م . ووصف ضخامتها ، فقال : إنها « مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها ، لا أوسع مساحة ، ولا أحفل بناء . يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته ، وبإزائها الحمام ، إلى غير ذلك من مرافقها ، والبناء فيها حتى الساعة ، والنفقة عليها لا تحصى . . تولى ذلك الإمام الزاهد العالم . . نجم الدين الخبوشانى . . وصلاح الدين يسمح له بذلك كله ، ويقول : زد احتفالاً وتأنقًا ، وعلينا القيام بمؤنة ذلك كله ! » [٢].

إقطاعات الأجناد

عندما بعث الخليفة الفاطمى العاضد إلى نور الدين فى سنة ٥٦٤ هـ برسالته التى ضمت خصلات من شعور نسائه ، والتى دعاه فيها إلى إيفاد جيشه لحماية مصر من الصليبيين ، وعده فى هذه الرسالة بأن يقطعه « ثلث بلاد مصر ، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيمًا عنده (عند العاضد بمصر) فى عسكره ، وإقطاعهم عليه خارجًا عن الثلث الذى لنور الدين » [٣]. وبعد أن حضر

---

(١) سيرة القاهرة : ص ٢٥٤ ، والقاهرة : تاريخها وآثارها .

(٢) رحلة ابن جبير : ص ٥٠ .

(٣) كتاب الروضتين : جـ١ ، ص ٣٩١

أسد الدين ، وتولى الوزارة ، وحمل لقب الملك المنصور أمير الجيوش « أقطع البلاد العساكر التى قدمت معه [1] . وهذا الإقطاع ، الذى صير مصر بأرضها ونواحيها وقفًا على هؤلاء الأجناد ، هو الذى جعل هؤلاء الجنود « الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية ، وخافوا على فوت ذلك منهم » [2]، يتفانون فى إزالة كل العقبات التى قامت فى طريق انفراد الأيوبيين بالسلطة فى البلاد . ودونها دخول فى أبحاث طويلة ومعقدة عن مدلول كلمة « الإقطاع » عند المفكرين العرب الذين كتبوا فى «الأموال والخراج» ، وعند الفقهاء الذين عالجوا هذا الضرب من ضروب العلاقة بين صاحب الإقطاع وبين الذين يفلحون الأرض التى أقطعت له ، وعند المؤرخين العرب المسلمين الذين أرخوا ، عرضًا ، لهذا النظام ، دون أن ندخل فى كل ذلك ، فإنه يكفينا أن نشير إلى أن السلطان قد كان عندما يقطع ناحية من النواحى لأمير من أمراء الجند ، فإن هذا الأمير إنما كان يحارب ويحرز الانتصارات ، ويتجهز هو وجنوده ، من ريع هذه الناحية التى صارت إقطاعًا له ، وأن كفاءته كجندى مقاتل إنما كانت شرطًا لتمتعه بريع هذه الأرض وذلك الإقطاع . ومن هنا ، كان هذا النظام نظامًا إقطاعيًّا يقوم على أن ريع الأرض إنما هو لهذا الأمير المملوك ومن تحت إمرته من الجنود .

ولقد حدثنا المقريزى فى خططه عن ذلك التغيير الأساسى والمهم الذى أحدثته الدوله الأيوبية فى شكل الاستغلال الزراعى . فبعد أن كان نظام القبالات و«الالتزام» هو السائد ، أقطع صلاح الدين جنوده أرض مصر فى نظير الحرب التى خاضوها ، والتى فى الانتظار أن يخوضوها ضد الصليبيين ، يحدثنا المقريزى عن ذلك التغيير الذى ساد مصر حتى عصره هو ، عندما يقول : « اعلم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر ، لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية ، وإنما كانت

---

(١) المصدر السابق : جـ ١ ، ص ٤٠٢ .

(٢) المصدر السابق : جـ ١ ، ص ٦٠٠ .

البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمـراء والأجناد والوجوه وأهل النواحى من العرب والقبـط وغيرهـم»[1] أى أنه بعـد أن كان شكـل الاستغلال الإقطـاعى للأرض هـو نظام الالتزام الذى يمكـن لمن دفع الضمان أن يحصل على امتيـازه من «الأمراء والأجنـاد والوجوه وأهل النـواحى من العرب والقبـط وغيرهـم » ، انحصر حق الاستغلال الإقطاعى للأرض ، أساسًا ، فى « عساكر البلاد» ، وذلك بسبب الدور المتزايـد الذى أصبح للجيش الأيوبـى الذى أقام الدولـة ، وأزال أعداءها ، وكان يسهر على حمايتهـا ، وأكثر من ذلك ، الذى فرضـت الأخطار الصليبية على المجتمع أن يمنحه كل شىء بما فى ذلك أرض البلاد فى صورة إقطاعات للأجناد .

ولذلـك ، فإن هذا الموقـف الأيوبـى من قضية الأرض وأشكـال استغلالها ، لم يكن بـدعًا ، وإنما كـان استجابـة للموجـة العسكريـة التى ركبـت المد فى الشرق العربى الإسلامى ، والتى لم يكن الأيوبيون إلا أحد آثارها .

بل إننا نجد أنـه فى نفس العام (سنة ٥٦٤ هـ) ، الذى أقطع فيـه أسد الدين شيركوه البلاد للعساكر التى قدمت معه ، نجد الصليبيين عندما عزموا على تحريك جيشهم ـــ الذى هـزمه أسد الـدين ـــ إلى مصر ، أحضر ملكهم « وزيـره ، وأمره بإقطاع بلاد مصر لخيالته (فرسـانه) ، وفرق قراها على أجناده ! » . ويعلق المؤرخ أبو شامـة على ذلك بقوله : « وكـان ، لعنه الله ، لما دخل ديار مصر قـد أقام من أصحـابـه مـن كتـب لـه أسماء قرى مصر جميعهـا ، وتعـرف لـه خبر ارتفـاعهـا (دخلها)»[2] .

فنحن إذن أمام طابع العصر ، ونظام ساد فيه ، هو النظام الأقطاعى ، وبإزاء شكل من أشكال الاستغلال الذى عرفه هذا النظام ، فرضته ظروف الحرب وسيادة الجيوش ، هـو إقطاعات الأجناد . ولقـد ظل هذا النظـام سائدًا حتى عدلـه من ناحيـة الشكل التشريع المعـروف « بالـروك الناصرى» ، والذى قسمـت فيه أرض

(١) خطط المقريزى : جـ ١ ، ص ٨٥ .

(٢) كتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٤٣٠ .

مصر إلى أربعة وعشرين قيراطًا ، للسلطان أربعة وللأجناد (رؤساء الجند) عشرة ، وللدولة عشرة [1] ، ولا شيء للفلاح ! .

أما المظاهر التطبيقية التى تضع يدنا على الصورة التى كانت عليها أرض مصر ونواحيها فى ذلك الحين ، وفى ظل هذا النظام ، فإننا نستطيع أن نقدم العديد منها ، فى هذه النقاط :

● فلقد كانت مصر تدفع مبلغًا من المال سنويًا لأمير مكة كرسوم على الحجاج المصريين - « مكس الحج » - إلى جانب إقطاعات أقطعها صلاح الدين لهذا الأمير فى صعيد مصر ، وجهات أخرى من الدولة الأيوبية [2].

● وفى سنة ٥٦٦ هـ - (سنة ١١٧٠م) ، طلب شمس الدولة تورانشاه - أخو صلاح الدين - ، طلب منه زيادة إقطاعه ، لأنه كان جوادًا كريمًا ، وكان إقطاعه لا يكفى ولا « يقوم بفتوته ولا ينهض بمروءته! » ، فأعطاه صلاح الدين فوق ما كان له « رَبْع الكامل بالقاهرة ، و « بوش » (من أعمال بنى سويف) و « أعمال الجيزة» (قراها) و « سمنود» ، وغيرها [3] .

● وعندما زار ابن جبير مدن صلاح الدين وثغوره فى الشام ، وجد طابع الحياة فيها وحياة أمرائها ، هو نفس طابع الحياة التى يحياها أمراء الإقطاع العرب الأندلسيون ، الذي كانوا يسمون بملوك الطوائف . فلقد قال عن أمراء « نصيبين» و « دارا» و « ماردين » و « دنيسر» و « رأس عين » : إنهم كملوك الطوائف بالأندلس ، « كلهم قد تحلى بحلية تنسب إلى الدين ، فلا تسمع إلا ألقابًا هائلة ، وصفات لدى التحصيل غير طائلة ! » ، وأن ما عدا صلاح الدين ، فإنما هى «زعازيع ريح ، وشهادات يردها التجريح ! !» [4].

---

(١) فجر اليقظة القومية : ص ١٦٣ .

(٢) رحلة ابن جبير : ص ٦٩ .

(٣) كتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٤٨٨ .

(٤) رحلة ابن جبير : ص ١٣ .

● ومن خلال بعض الأرقام التى نعثر عليها لدى المقريزى ، نجد أن مصر فى سنة ٥٨٥ هـ (سنة ١١٨٩م) قد قسمت إلى ٢٣ منطقة ووحدة اقتصادية ، فى الوجه البحرى منها اثنتا عشرة منطقة يجمع منها ٦٥٣ , ١٥١ , ١ دينارًا ، وفى الوجه القبلى منها إحدى عشرة منطقة يجمع منها ٤٤١ , ٦١٠ , ١ دينارًا . ثم نجده يذكر لنا كيف كانت فى الميزانية على عهدهم أرقام كثيرة ، وبنود متعددة تذهب إلى الأجناد . فللأمراء والأجناد ٢٠٣ , ١٥٨ دنانير، وللعربان (وهم جند وفرقة فى الجيش) ٢٩٦ , ٢٣٤ دينارًا ، وللكنانية (وهم جند وفرقة فى الجيش) ٤١٢ , ٢٥ دينارًا ، وللقيمارية والصالحية والأجناد المصريين ٥٠٤ , ١٢ دنانير ، وللغزاة والعساقلة المركزة بدمياط وتنيس وغيرهم ٧٢٥ , ١٠ دينارًا ، وهكذا وهكذا .

المكـــوس

على أن هذا النظام الذى وزعت به أرض مصر إقطاعات للأمراء والأجناد ، والذى تغير به شكل الاستغلال الإقطاعى فيها منذ حكمها الأيوبيون ، لا يعنى أن وحدة البلاد الإدارية والسياسية قد ضعفت عن ذى قبل . بل إن الأمر ، فيما يتعلق بهذا الموضوع ، كان على العكس من ذلك تمامًا . فعلاوة على دور نهر النيل التاريخى والتقليدى فى بناء وحدة مصر ، وتأكيد مركزيتها ، وتعميق هذه الوحدة وتلك المركزية ، نجد أن هذا التقسيم الإقطاعى الأيوبى للأرض قد أقطعها لأمراء الحرب والأجناد ، وهم لم يكونوا يعيشون فى النواحى التى أقطعت لهم ، بل قد لا يكون أغلبهم ، لأوقات كثيرة ، موجودًا بمصر ، وإنما بالشام لملاقاة الصليبيين ، أو بالثغور لحراستها ، أو باليمن يحكمها ، مثل شمس الدولة تورانشاه ، الذى ضاقت به إقطاعاته بمصر ، ففتح اليمن كى تتسع له دائرة الإقطاعات ! أو بمكة ، مثل أميرها الذى أقطعه صلاح الدين بعض نواحى الصعيد . ومن ثم ، فإننا إذا قارنا الوضع الجديد ، فيما يتعلق بالوحدة الإدارية للدولة ، بوضعها زمن الفاطميين ، وخصوصًا فى مرحلة ضعفهم ، أيام كانت دوائر الالتزام تمنح لمن يقيم فيها أحيانًا ، أو يباشر أعمالها غالبًا ، ولمن ينيب عنه من يتنظر عليها فى كل

الأحيان ، فإننا نجد أن النظام الجديد قد قارب بين هذه الوحدات الاقتصادية (الإقطاعات) ، وزاد بذلك من الوحدة الإدارية والسياسية للبلاد .

ولعل وراء ذلك يقف السر فى إلغاء صلاح الدين الأيوبى للمكوس ، التى كانت بمثابة الضرائب الداخلية على التجارة العابرة بين الأقاليم والمدن المختلفة فى الدولة . ففى يوم الجمعة ٣ من صفر سنة ٥٦٧ هـ (سنة ١١٧١م) ، قرىء المنشور الخاص بإلغاء المكوس فى مصر ، والذى جاء فيه :

« . . . ولما تقلدنا أمور الرعية ، رأينا المكوس الديوانية (الحكومية) بالقاهرة ومصر أولى ما نَقَلناها من أن تكون لنا فى الدنيا إلى أن تكون لنا فى الآخرة !! . . ونضعها ، فلا ترفعها من بعد يد حاسب ولا قلم كاتب . . وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر ، وجميع التجار المترددين إليهما ، وإلى ساحة المقسم (المقس) والمنية ، بأبواب المكوس ، صادرها وواردها ، فيرد التاجر ويسفر، ويغيب عن ماله ويحضر، ويقارض ويتجر ، برا وبحرا ، مركبا وظهرا ، سرا وجهرا ، لا يحل ما شده ، ولا يحاول ما عنده ، ولا يكشف ما ستره ، ولا يسأل عما أورده وأصدره ، ولا يستوقف فى طريقه ، ولا يشرق بريقه ، ولا يؤخذ منه طعمة ، ولا يستباح له حرمة ، والذى اشتملت عليه المسامحة فى السنة من العين (الذهب) مائة ألف دينار »[1] .

وكانت المكوس التى تجبى بمصر قبل ذلك المنشور كثيرة ومتعددة ، وشديدة الإرهاق للتجار والمواطنين . فابن جبير يحدثنا عن أن الحجاج المغاربة المارين بمصر كان يدفع كل منهم ، برغم فقرهم الشديد ، سبعة دنانير ونصفا . كما أن الأمر قد بلغ إلى الحد الذى أخذت فيه المكوس على شرب ماء النيل . . فضلاً عما

(١) كتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٥٢٢ ، ٥٣٢ . والبداية والنهاية : جـ ١٢ ، ص ٢٦٨ . ورحلة ابن جبير : ص ٥٥ .

سواه! »[1] . ولقد كانت الصناعات القائمة بمدينة مصر تدفع مكوسًا قيمتها ١٠,٠٠٠ دينار ، و « ما يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية مائة ألف دينار » ، فألغى صلاح الدين « جميع المكوس ، صادرها وواردها ، جليلها وحقيرها »[2].

على أننا يجب ألا نرتب على هذا الحدث الاقتصادى والإدارى المهم ، الذى يتمثل فى إلغاء المكوس ، أى آثار اجتماعية قد يتصورها البعض . فلم يكن خلف هذا القرار تخفيف حقيقى فى الأعباء عن كاهل الشعب المصرى . ذلك ، أن المكوس إنما كانت تجبى وتجمع من قبل ، ليتحمل عبئها أساسًا التجار والملتزمون الذين ينقلون السلع والمحاصيل من إقليم إلى إقليم . أما الآن ، فلقد حل الأمراء والأجناد محل هؤلاء الملتزمين ، وصار كل الريع والفائض الناتج من هذه الإقطاعات والنواحى خالصاً لهم ولنفقاتهم من دون الناس . وأكثر من ذلك ، فإننا عندما نقارن المفروض على الأقاليم المصرية فى عهد صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٥هـ ، حسب أرقام المقريزى ، بما كان مفروضاً على مصر زمن الخليفة الفاطمى المستنصر ، نجد المبلغين يكادان يتساويان . فإذا أضفنا إلى ذلك حقيقة هامة ذكرها ابن جبير عن الأموال الكثيرة التى يجمعها عمال الموانى فى الإسكندرية ، وفى مداخل المدن وعند مراسى السفن ، باسم الزكاة ، غير مفرقين فى ذلك بين المال الذى مر عليه عام ، وبالتالى استحقت عليه الزكاة ، وبين الذى لم يحل عليه الحول ، ولا مفرقين بين المال الذى بلغ النصاب والذى لم يبلغ ، وكيف شمل ذلك « الحجاج الذين لا يحملون سوى زادهم » ، وكيف « يعترضون الغرباء المنقطعين ممن تجب الزكاة له لا عليه ! » . كما تحدث عن « التعريض لمراكب المسافرين ، وتكشفها ، والبحث عنها ، وإدخال الأيدى إلى أوساط التجار ، فحصاً عما تأبطوه أو احتضنوه من دراهم أو دنانير . . كل ذلك برسم الزكاة ، دون مراعاة لمحلها ، أو ما يدرك النصاب منها . . وربما ألزموهم الأيمان على ما

---

(١) رحلة ابن جبير : ص ٥٥ .

(٢) كتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٤٤٣ ، ٤٥٦ .

بأيديهم، وهل عندهم غير ذلك ؟! ويحضرون كتاب الله العزيز يقع اليمين عليه ، فيقف الحجاج بين أيدى هؤلاء المتناولين لها مواقف خزى ومهانة تذكرهم أيام المكوس ! » . كما يتحدث عن « خروج شرذمة من أعوان الزكاة وفى أيديهم المسال الطوال ذوات الأنصبة ، فيصعدون إلى المراكب استكشافاً لما فيها » ، فيتجسسون على كل شيء (١).

فإذا علمنا أن ضريبة الزكاة هذه قد حلت محل المكوس ، وإذا علمنا كذلك أن النشاط التجارى قد زاد بمصر فى تلك الفترة بسبب تعطل طريق التجارة العالمية المار بالشام لوجود الأخطار الحربية هناك على القوافل لاشتعال الحرب مع الصليبيين ، أدركنا أن إلغاء المكوس، لم يكن بالقرار الذى رفع الشيء الكثير عن كاهل الناس حينئذ . ومن ثم ، فإنه ليست هناك وجوه للشبه بينه وبين إلغاء المكوس فى أوربا بين الإمارات الإقطاعية عندما ساد الشعار البورجوازى : « دعه يعمل ، دعه يمر » ، على الرغم من تلك الصياغة التى صيغ بها منشور صلاح الدين والتى توحى ، للوهلة الأولى ، بأوجه للشبه كثيرة بين أهداف المنشور وبين هذا الشعار.

وهكذا ، نجد أن الخطر الصليبى المدمر ، الذى اجتاح المشرق العربى فى ذلك التاريخ ، والذى كان سبباً فى قيام الدولة الأيوبية فى مصر ، التى أخذت على عاتقها مواجهته ، والتى بذلت فى ذلك الكثير ، وسجلت فى ميدانه الكثير من صفحات البطولة والفخار ، نجد أن هذا الخطر هو الذى كان وراء تلك التغيرات الاقتصادية التى حدثت فى نظام استغلال الأرض المصرية ، كما كان وراء تلك الفكرية السلفية المحافظة التى سادت ذلك العصر من عصور حياة مصر القاهرة .

ولقد ظل هذا الخطر يؤدى هذا الدور. وعندما انضم إليه خطر التتار، والحلف

---

(١) رحلة ابن جبير : ص ٤٤، ٤٥ ، ٥٩ ، ٦٠ .

الذى قام بين التتار الوثنيين والغرب المسيحى الاستعمارى ، تقدم الأمراء والأجناد ، حملة السيوف ، خطوة جديدة إلى الأمام ؛ فبدلاً من أن يكتفى زعيمهم « عز الدين أيبك التركمانى بمنصب القيم على السلطان الصبى ذى الثمانى السنوات « الأشرف موسى » الذى أجلسوه على العرش « بعد شجرة الدر» نجده يخلع « الأشرف موسى» ويتزوج شجرة الدر ، ويتولى سلطنة البلاد سنة ١٢٥٠م ــ (سنة ٦٤٨هـ)، فتنشأ بذلك دولة المماليك البحرية ، تمامًا كما صنع صلاح الدين الأيوبى عندما لم يكتف بأن يكون وزيراً للعاضد وقائداً للجيش فى سنة ١١٧١م (سنة ٥٦٧ هـ) ، لأن الأخطار العسكرية الخارجية قد كانت فى سنة ١٢٥٠ م كما كانت فى سنة ١١٧١م تقتضى أن تكون السياسة والجندية فى يد واحدة ، لا موزعة بين الخليفة أو السلطان وبين أمير الجيوش وقائد الأجناد .

* * *

وهكذا ، أسهمت الأخطار الحربية الصليبية مع المشكلات الاقتصادية والاجتماعية ، التى نشأت فى المجتمع المصرى ، على عهد الفاطميين ، أسهمت كل هذه العوامل فى إنهاء هذه الخلافة ذات الطابع العقلانى ، والتى مثل عصرها الحقبة الزمنية التى اكتملت فيها قسمات العروبة للمجتمع المصرى ، والتى عادت فيها لمصر تأثيراتها القيادية فى المجتمع العربى ، عندما تحولت من « ولاية » إلى «عاصمة » للخلافة تتبعها « الولايات » و « الإمارات » . .

وإذا كانت مصر قد شهدت تغييرات هامة ــ فى الفكر والاقتصاد والاجتماع ــ خلال العهد الأيوبى ، غيرت من الطابع والقسمات التى سادتها وميزتها فى العهد الفاطمى ، إلا أن الشيء الذى لم يتغير فيها هوالدور القيادى الذى ظلت تمارسه ، على النطاقين العربى والإسلامى ، ضد الغزوة الصليبية والزحف التترى وكل الأخطار التى أحدقت بالوطن العربى منذ ذلك التاريخ . .

لقد طويت صفحة حافلة من تاريخ مصر العربية . . ولكنها واصلت إمداد التاريخ العربى بالأحداث التى يسطر منها العديد والعديد من الصفحات .

المصادر

- ابن جبير : رحلة ابن جبير : (تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار) . طبعة دار التحرير ، القاهرة سنة ١٩٦٨ م .
- ابن خلدون : (المقدمة) طبعة القاهرة ، سنة ١٩٠٤ م .
- ابن كثير : (البداية والنهاية فى التاريخ) . طبعة القاهرة .
- أبو شامة : (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين : النورية والصلاحية) . تحقيق : د. محمد حلمى محمد أحمد . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٦٢م .
- جورج كيرك : (موجز تاريخ الشرق الأوسط) . ترجمة : عمر الإسكندرى . طبعة الألف كتاب ، القاهرة .
- ستانلى لينبول : (سيرة القاهرة) . ترجمة : د. حسن إبراهيم حسن ، ود. على إبراهيم حسن ، وإدوارد حليم . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٥٠م .
- عبد الرحمن زكى : (القاهرة : تاريخها وآثارها (٩٦٩ ــ ١٨٢٥م) من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٦٦م .
- د. عبد المنعم ماجد : (السجلات المستنصرية) « دراسة وتحقيق » طبعة القاهرة ١٩٥٤م
- فيليب حتى ـ وآخرون : (تاريخ العرب) « مطول » . طبعة بيروت ، سنة ١٩٥٣م .

ـ القلقشندى : (صبح الأعشى) . طبعة القاهرة .

ـ المقريزى : (خطط المقريزى) . طبعة بولاق .

(اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا) . تحقيق : د. جمال الدين الشيال . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٦٧م .

(إغاثة الأمة بكشف الغمة) . . تحقيق : د. محمد مصطفى زيادة ، ود. جمال الدين الشيال . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٤٠م .

ـ محمد عبد الله عنان : (الحاكم بأمر الله ، وأسرار الدعوة الفاطمية) . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٥٩م .

ـ د. محمد ضياء الدين الريس : (الخراج والنظم المالية للدولة الفاطمية) . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٥٩م .

ـ د. محمد عمارة : (فجر اليقظة القومية) . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٦٧ .

ـ اليافعى (عبد الله بن أسعد) : (مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حوادث الزمان) . طبعة حيدر آباد ، بالهند ، سنة ١٣٣٩ هـ .

الفهـــرس

رقم الإيداع : ٢٢٧٨ / ٩٧
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 09 - 0373 - 6

مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - ت : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)